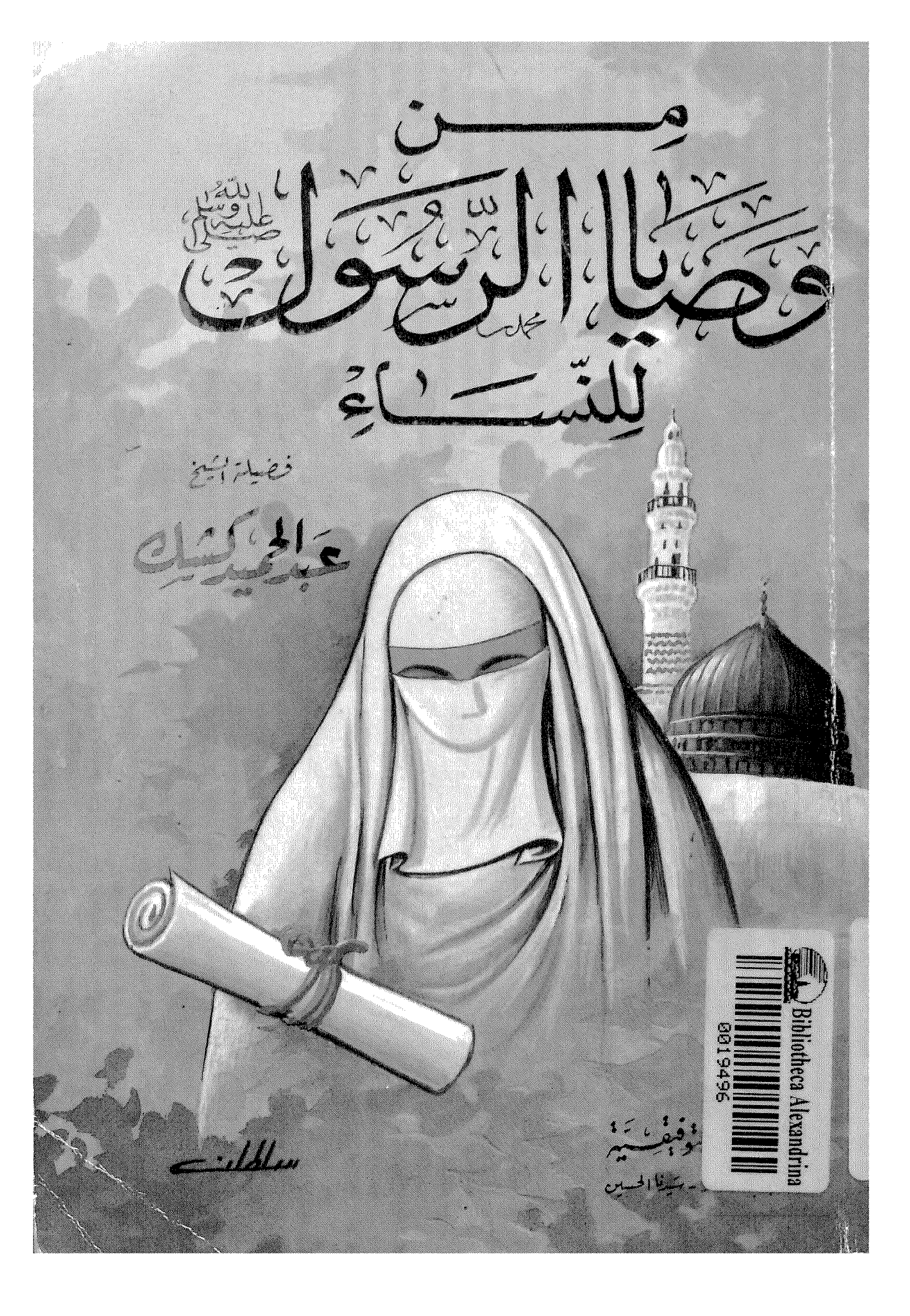

من
وصايا الرسول ﷺ
للنساء
فضيلة الشيخ
عبد الحميد كشك
توفيقية

مِنْ وَصَايَا الرَّسُولِ ﷺ

(الموجهة إلى نساء الأمة)

تأليف
الشيخ / عبد الحميد كشك

الناشر
المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر ـ سيدنا الحسين


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ..

﴿محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع اخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً واجْراً عظيماً﴾ .

[سورة الفتح الآية : ٢٩]

وأشهد أن لا إلـه إلا الله هو القائل :

﴿يـٰأيُها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ .

[سورة النساء الآية : ١]

سبحانك ربى .. يا من قلت وقولك الحق : **﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفًا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحًا لنكونن من الشاكرين﴾ .**

[سورة الأعراف الآية : ١٨٩]

فكل ما فى الكون زوج ، وكل ما فى الكون متزاوج متناغم ، فالسماء تمطر الأرض فتؤتى أكلها ولا تظلم منه شيئاً .

والنبات يُلقح ذَكَرُهُ أنثاه ، والجماد إلكترونات ونواة .

فسبحانك أنت القائل : **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ .**

[سورة الذاريات الآية ٤٩]

فإذا كان الإنسان من ذكر وأنثى ، فإن الحيوان والدواب كذلك ، حتى الجماد فيه عنصران سالب وموجب ، والنبات . فقد صدق قولك :

﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن انفسهم ومما لا يعلمون﴾ .

[سورة يسٓ الآية : ٣٦]

أما الواحد الذى لا شريك له ، فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

﴿ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين﴾ .

[سورة الذاريات الآية : ٥٠]

فسبحان من نظم الكائنات ، علويها وسفليها ، ونظم ما فى الأرض جميعاً فلا تجعلوا مع الله إلٰهاً آخر ... سبحانك ربى .

انت العلى وذاك وصفك ثابت
وإليك يصعد طيب الكلمات
وحبيبك المختار من بين الورى
فخر الوجود وسيد السادات

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله .

بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونظم المجتمع أحسن تنظيم عندما قال : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : **«كلكم راعٍ فمسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عنهم ، والرجل راعٍ على اهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمراة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئوله عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه .. الا فكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته»** .

[رواه البخارى ومسلم اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ ٢٤٢ ط الحلبى القاهرة]

فصلوات الله وسلامه عليك يا من جعلت الأسرة الصالحة نواة للمجتمع .

يا من بعثك الله ليتمم بك مكارم الأخلاق .

يامن له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخُلقُ العظيم شمائل
يُعزى بهم ويولع الكرماءُ

صلى عليك الله ياعلم الهدى ماهيت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

أما بعد فيا حماة الإسلام وحراس العقيدة :

فإن الأسرة وبناءها أصل كل مجتمع ينشد الفضيلة ، ومن ثَمَّ فإن الله تعالى جعل الآية الخاصة بذلك بين الآيات الكونية فى سباقها ولحاقها وسياقها .

قال جل جلاله : ﴿**ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمةً إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ .

[سورة الروم الآية : ٢١]

وقبلها يقول ـ تعالى ـ: ﴿**ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشرٌ تنتشرون**﴾ .

[سورة الروم الآية : ٢٠]

ويقول تعالى بعدها : ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين**﴾ [سورة الروم الآية : ٢٢]

ومن هنا فإن النساء شقائق الرجال ، ونحن نقدم فى هذا الكتاب وصاياه ـ ﷺ ـ الموجهة إلى نساء الأمة ، حتى تستقيم الحياة ، ونقرنها أيضاً بوصاياه إلى الرجال حتى تسير السفينة فى جو معتدل .

قال تعالى : ﴿**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم**﴾ .

[سورة البقرة : ٢٢٢]

ونبدأ هذا الكتاب بإذن الله بذكر فضائل بعض أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابيات الجليلات .

الشيخ / عبد الحميد كشك

فضائل السيدة خديجة بنت خويلد
(أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ)

عن علي ـ رضى الله عنه ـ : سمعت النبى ـ ﷺ ـ يقول : « **خير نسائها مريم ابنة عمران ، وخير نسائها خديجة** »[1] .

أى خير نساء أهل الدنيا فى زمانها هى مريم ابنة عمران ، وخير نساء هذه الأمة المسلمة هى السيدة خديجة بنت خويلد .

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث :**

مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

وقد عقَّب أحد الفضلاء على هذا الحديث تعقيباً لطيفاً فقال :

من الموافقات اللطيفة التى جمعت الثلاث فى نسق واحد أن كل واحدة منهن كفلت نبياً مرسلاً ، وأحسنت صحبته ، وآمنت به .

فأسية ربَّت موسى ، وأحسنت إليه ، وصدّقت به حين بُعث .

ومريم كفلت عيسى وربته ، وصدقت به حين أرسل .

وخديجة رغبت فى النبى وواسته بنفسها ومالها وأحسنت صحبته ، وكانت أول من صدقة حين نزل عليه الوحى .

ولذا فإنه من كرامتها عليه ـ ﷺ ـ أنه لم يتزوج امرأة قبلها ، وكل أولاده منها ، ما عدا إبراهيم ابن مارية القبطية ، ولم يتزوج عليها قط إلى أن قضت نحبها ـ رضى الله تعالى عنها ـ.

وبقى النبى الكريم ـ ﷺ ـ وفياً لها ، يثنى عليها دائماً ، يحب من يحبها ، وترتاح

---

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ٣ ط الحلبى صـ١٣٨ .

نفسه لنبرة صوتها ، فقد كانت تستأذن عليه هالة بنت خويلد أخت خديجة ، فيذكّرهُ صوتها صوت خديجة وحديثها الطيب وأيامها المباركة ، فيهش لها ، وترتاح نفسه لذلك ، وتُشرق أسارير وجهه الشريف - ﷺ - .

وكان - ﷺ - دائم الذكر لها ، والإشارة لِفَضَائِلِها ، ومن ثم الترحم عليها ، بل والإحسان إلى كل من يمتُّ لها بصلة .

وقد ظلت مكانة السيدة خديجة في منزلة سامية عند الرسول - ﷺ -، وقد بشرها بالجنة مراراً .

فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : أتى جبريل النبى - ﷺ - فقال : « **يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتتك فاقرأ - عليها السلام - من ربها ومنى ، وبشرها ببيتٍ فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب** »[1] .

ومن حديث عبد الله بن أبى أوفى عن إسماعيل : قال : قلت لعبد الله بن أبى أوفى - رضى الله عنه -:

بشَّر النبى - ﷺ - خديجة ؟ قال : « **نعم بيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب** » .

وإقراء السلام للسيدة خديجة لهو فضيلة عظيمة مباركة طاهرة للسيدة الطاهرة فهى المرأة الوحيدة التى وصلها السلام من ربها مع السلام فى جبريل عليه الصلاة والسَّلام .

وكذلك فإن الله قد بشرها ببيت فى الجنة ليس فيه صياح ولا منازعة ولا ما يوجب المشقة والتعب .

وللإمام السهيلى تعليق لطيف على هذا الحديث ، يشير إلى مكانة السيدة خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - .

وقد أخبر سيدنا أنس - رضى الله عنه - أنه عندما جاء جبريل إلى النبى - ﷺ - وعنده خديجة فقال : « **إن الله يقرىء خديجة السلام** .

---

(١) اللؤلؤ جـ٣ صـ١٣٩ .

أنها قالت للرسول ـ ﷺ ـ: « **إن الله هو السلام ، وعلى جبريل السلام ، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته** » .

وقد ذكر أهل العلم أن هذا الجواب من السيدة خديجة يدل على فقهها وعلمها ووفور عقلها وحسن أدبها .

وعن السيدة فاطمة رحانة الرسول أنها قالت للنبى ـ ﷺ ـ : « **أين أمنا خديجة** » ؟

فى بيت من قصب ، لا لغو فيه ولا نصب ، بين مريم وآسية .

قالت : مِن هذا القصب ؟

قال : لا . بل من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت » .

ومن كثرة ذكر الرسول ـ ﷺ ـ لخديجة قالت السيدة عاشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ:

ما غِرْتُ على على أحد من نساء النبى ـ ﷺ ـ ما غرتُ على خديجة ، وما رأيتُها ، ولكن كان النبى ـ ﷺ ـ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يُقَطِّعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فرُبما قلت له : كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول : « **إنها كانت ، وكانت ، وكان لى منها ولد** »[1] .

وهذا دليل على خصائلها ومحامدها ، ومن المتفق عليه أن أولاد النبى ـ ﷺ ـ منها إلا إبراهيم فإنه كان من مارية القبطية .

وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ استأذنت هالة بنت خويلد ، أختُ خديجة ، على رسول الله ـ ﷺ ـ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك ، قال : « اللهم ! هالة » . قالت :

فغِرْتُ فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها »[2] .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ط الحلبى جـ٣ صـ١٣٩ .

(٢) اللؤلؤ جـ٣ صـ١٤٠ .

وخديجة هى أول من أسلم بإجماع المسلمين ، لم يتقدمها رجل ولا امرأة ، وهذه منقبة عظيمة لأم المؤمنين لا يدانيها فيها فضل .

وهى أول من تزوج رسول الله ـ ﷺ ـ .

وهى أول من صلى مع رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت الصلاة هى ركعتان فى الغداة وركعتان فى العشى ، وذلك قبل أن تُفرض الصلوات الخمس فى ليلة الإسراء .

وهى أول من أنجبت الأولاد لرسول الله ـ ﷺ ـ .

وهى أول من بشرها الرسول ـ ﷺ ـ بالجنة من أزواجه .

وهى أول من أقرأها ربها السلام .

وهى أول صدّيقة من المؤمنات .

وهى أول زوجات النبى ـ ﷺ ـ لحوقاً بربها .

فلقد توفيت ـ رضى الله عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنوات فى مكة ولها من العمر خمس وستون سنة ، ولما حضرتها الوفاة دخل عليها النبى ـ ﷺ ـ فقال : **« تكرهين ما أرى منك وقد جعل الله فى الكره خيراً »** .

ولقد نزل الرسول ـ ﷺ ـ فى حُفرتها وأدخلها القبر بيده الشريفة فى الحجون ، وَوَجِدَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لفقدها ، وتركت وفاتها فى نفسه أثراً عميقاً ، فلقد كانت سكناً للنفس ، وراحة للروح ، وفى نفس العام توفى عمه أبو طالب قبل خديجة فأطلق النبى ـ ﷺ ـ اسم عام الحزن على ذلك العام لشدة ما كان فيه من الشدائد فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى .

ولقد عاشت السيدة خديجة مع رسول الله ـ ﷺ ـ أربعاً وعشرين سنة وأشهراً لم تقل له أف قط .

ولذلك ظل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفياً لها بعد وفاتها كل الوفاء ، وقد كان النبى ـ ﷺ ـ وفياً لكل من يستحق الوفاء ، فكيف بالسيدة خديجة منبع الوفاء ومعدن العرفان والفضائل كلها !

وأروع دليل على وفائه لها هو ما حدث فى غزوة بدر الكبرى ، إذ أُسِر أبو العاص بن الربيع صهر الرسول ـ ﷺ ـ وزوج ابنته زينب ابنة زوجه الوفية خديجة . فأرسلت زينب فداءً لزوجها أبى العاص قلادة كانت قلدتها بها أمها خديجة ليلة زفافها .

فلما رآها الرسول ـ ﷺ ـ رقَّ لها رقة شديدة وتذكر خديجة وقال لأصحابه :
« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا » .

فما كان من الصحابة الأبرار إلا أن استجابوا للنبي الكريم ـ ﷺ ـ، وأطلقوا سراح أبي العاص ، وأعادوا القلادة إلى زينب إكراماً لرسول الله ـ ﷺ ـ .

ولما قالت السيدة عائشة للرسول ـ ﷺ ـ عندما أخذتها الغيرة لكثرة ذكره لخديجة قالت :

هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟

غضب الحبيب المصطفى ثم قال : **« والله ما أبدلني خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها »** .

قالت عائشة : فقلت في نفسي . فلا أذكرها بعدها بسُبة أبداً .

وجاءت ذات يوم امرأة عجوز من صويحبات السيدة خديجة إلى بيت رسول الله ـ ﷺ ـ فأحسن الرسول لقاءها ، وأكرم مثواها ، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، وأخذ يسأل عن أحوالها .

فقالت عائشة لما خرجت :

تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! فقال : **« إنها كانت تأتينا زمان خديجة ، وإن حُسْنَ الْعَهْدِ من الإيمان »** .

وكان الحبيب إذا ذبح الشاة قال : **« أرسلوها إلى صديقات خديجة »** .

فذكرت له يوماً فقال : **« إني لأحبُّ حبيبها »** .

وبعد :

فهذه كلمات مباركة من حياة أم المؤمنين السيدة خديجة ـ رضوان الله تبارك وتعالى عليها ـ.

* * *

فضائل السيدة عائشة بنت الصديق أبى بكر (أم المؤمنين) -رضى الله تعالى عنها-

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ إن النبى ـ ﷺ ـ قال لها : « **أريتك فى المنام مرتين ، أرى أنك فى سَرَحَة من حرير ، ويقول : هذه امرأتك ، فاكشف عنها . فإذا هى أنت ، فأقول : إن بك هذا من عند الله يُمضه** »[1] .

وجاء جبريل ـ عليه السلام ـ بصورة عائشة فى خرقة خضراء إلى النبى ـ ﷺ ـ وقال : « **هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة** » .

وقال ـ ﷺ ـ: « **إنه ليهوّن علىّ أنى رأيت بياضَ كَفِّ عائشة فى الجنة** » .

وسأل عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ رسول الله ـ ﷺ ـ: أى الناس أحب إليك يارسول الله ؟ قال : « **عائشة** » قال : فمن الرجال ؟ قال : « **أبوها** » .

وعائشة هى بنت الصديق خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ ، أبى بكر عبد الله بن أبى قحافة .

وأم عائشة هى أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية .

وأختها لأبيها أسماء ذات النطاقين ، عاشت مائة سنة وهى من أهل الجنة .

وأخوها الشقيق عبد الرحمن ، بطل من أبطال الإسلام .

وأخواها لأبيها عبد الله ومحمد من نجباء مدرسة الرسول وفرسانها .

فى هذا البيت البكرى الصديقى الإيمانى ولدت عائشة بمكة قبل الهجرة بسبع سنوات ، ولدت فى الإسلام ، وكانت تقول :

لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين .

---

(١) اللؤلؤ جـ٣ صـ١٤٠ السَّرَقة : الشفق الأبيض من الحرير .

وهكذا نبتت عائشة نباتاً حسناً فى بيت يذكر فيه الله رب العالمين .

وقد أراد الله — تبارك وتعالى — خيراً لعائشة ، فأعدها كى تصبح زوجة للنبى العظيم محمد — ﷺ — وأما للمؤمنين وكان النبى يوصى بها خيراً .

وعقد الحبيب على عائشة وأصدقها أربعمائة درهم .

وفى رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كان نصر بدر ، وفى شهر شوال من السنة نفسها ، انتقلت عائشة من بيت الصديق إلى بيت النبوة ومهبط الوحى .

وكانت عائشة حديثة السن ، وكان الرسول — ﷺ — يقدر ذلك ، وقالت عائشة عن ذلك : « **كنت ألعب بالبنات عند النبى — ﷺ — وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله — ﷺ — إذا دخل يتقمعن منه ، فيُسّر بُهُن إلىّ ، فيلعَبْنَ معى** »[1] .

وروت عائشة — رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — كان يُسر لسرورها فقالت :

دخل علىّ رسول الله — ﷺ — وأنا ألعب بالبنات (اللعب) فقال : « **ما هذا يا عائشة ؟** » .

قلت : خيل سليمان ولها أجنحة ، فضحك — ﷺ — : وقالت : قال لى رسول الله — ﷺ —: « **إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية ، وإذا كنت علىّ غضبى** »[2] .

قالت ، فقلت : من أين تعرف ذلك ؟ فقال :

« أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لا ، ورب محمد !

وإذا كنت غضبى ، قلت : لا ، ورب إبراهيم ! قالت : قلت : أجل والله ! يارسول الله ! ما أهجر إلا إسمك » .

وفى هذا الحديث الحكم بالقرائن ، لأنه — عليه الصلاة والسلام — حكم برضا عائشة وغضبها بمجرد ذكرها اسمه الشريف وسكوتها .

(١،٢)اللؤلؤ والمرجان ط الحلبى القاهرة جـ٣ صـ١٤٠/١٤١ يتقمعن يتغيبن حياء منه ، يسر بهن : يرسلهن ويبعثهن .

واستدل على كمال فطنتها وقوة ذكائها بتخصيصها إبراهيم ـ عليه السلام ـ دون غيره ، لأنه ـ ﷺ ـ أولى الناس به كما فى التنزيل ، فلما لم يكن لها بد من هجر اسمه الشريف عبد الله أبدلته بمن هو منه بسبيل ، حتى لا تخرج عن دائرة التعلق بالجملة .

وفى قولها ـ رضى الله عنها ـ : **« والله يا رسول الله ما أهجر إلا إسمك »** .

قال فى شرح المشكاة :

هذا الحصر فى غاية من اللطف فى الجواب ، لأنها أخبرت أنها إذا كانت فى غاية من الغضب الذى يسلب العاقل اختياره ، لا يغيرها عن كمال المحبة المستغرقة ظاهرها وباطنها ، الممتزجة بروحها ، وإنما عبرت عن الترك بالهجران لتدل به على أنها تتألم من هذا الترك الذى لا اختيار لها فيه .

كما قال الشاعر :

إنى لأمنحك الصدود وإننى
قسماً إليك مع الصدود لأميل

وقال الإمام النووى :

قال القاضى مغاضبة عائشة للنبى ـ ﷺ ـ هى مما سبق من الغيرة التى عفى عنها للنساء فى كثير من الأحكام لعدم انفكاكهن منها .

حتى قال مالك وغيره من علماء المدينة[1] :

يسقط عنها الحد إذا قذفت زوجها بالفاحشة على وجه الغيرة ، واحتج بما روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : **« ما تدرى الغيراء أعلى الوادى من أسفله ، ولولا ذلك لكان على عائشة فى ذلك من الحرج ما فيه ، لأن الغضب على النبى ـ ﷺ ـ وهجره كبيرة عظيمة ، ولهذا قالت : لا أهجر إلا اسمك »** .

فدل على أن قلبها وحبها كما كان . وإنما الغيرة من النساء لفرط المحبة[2] .

---

(١) ينظر والشرح اللؤلؤ والمرجان جـ٣ صـ١٤٠/١٤١ ط الحلبى القاهرة .

(٢) اللؤلؤ جـ٣ صـ١٤١/١٤٣ ط الحلبى .

ومن فضائل عائشة أن النبى ـ ﷺ ـ مات عندها وبين نحرها وسحرها حيث قالت :

إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يسأل فى مرضه الذى مات فيه يقول : « **أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً** » . يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء ، فكان فى بيت عائشة حتى مات عندها .

قالت عائشة : فمات فى اليوم الذى كان يدور علىَّ فيه ، فى بيتى ، فَقَبضه الله وإن رأسه لبين نحرى وسحرى .

والنحر هو أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة من الصدر .

والسحر أى الرئة . وقيل السحر : ما لصق بالحلقوم من أعلى البطن .

وقالت ـ رضى الله عنها ـ : كان رسول الله ـ ﷺ ـ وهو صحيح يقول : « **إنه لم يقبض نبى قط حتى يرى مقعده من الجنة** » ، ثم يحيا أو يُخير ، فلما اشتكى وحضره القبض ، ورأسه على فخذ عائشة ، غُشى عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال : « **اللّهم فى الرفيق الأعلى** » .

فقلت : إذاً لا يجاورنا .

فعرفت أنه حديثه الذى كان يحدثنا وهو صحيح .

ومن فضائل عائشة ـ رضى الله عنها ـ .

أن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام** »[1] .

ولقط حظيت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ بفضائل باهرة لم تحظ بها أى امرأة من نساء المسلمين قط .

فهى تقول عن نفسها :

لقد أعطيتُ تِسْعاً ما أُعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران :

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ط الحلبى جـ٣ صـ١٣٨ ، ١٤٣ .

١ ـ لقد نزل جبريل بصورتى فى راحته ، حتى أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكراً ، وما تزوج بكرًا غيرى .

ولقد قُبِضَ رسول الله ـ ﷺ ـ ورأسه فى حجرى .

٢ ـ ولقد كان قبره ـ ﷺ ـ فى بيتى .

٣ ـ ولقد حفّت الملائكة ببيتى ، وإن كان الوحى لينزل على النبى ـ ﷺ ـ وإنّى لمعةُ فى لحافة .

٤ ـ وإنى ابنة خليفته وصدّيقه .

٥ ـ ولقد نزل عذرى من السماء وظهرت براءتى .

٦ ـ ولقد خلقت طيبته عند طيب .

٧ـ ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً .

ولقد قال الشيخ عبد القادر الجيلانى قصيدة لطيفة على لسان أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ :

إنى خصصت على لسان محمـــد
بصفـــات بـــر تحتهن معـــانى
وسبـــقتهن إلى الفضائـــل كلهـــا
فالسبعة سبقـــى والعنـــان عنـــانى
زوجـــى رسول الله لم أر غيره
الله زوجنـــــى بـــه وحبـــانى
وأتـــاه جبريـــــل الأمين بصورتى
فأحبنــــى المختـــــار حين رآنى
وأنا ابنة الصديـــق صاحب أحمد
وحبيبـــــة فى السر والإعـــــلان

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ مشيرًا إلى فضلها : « إنها ابنة أبى بكر » .

ولا عجب فإن الصديق هو الذى قال عنه ـ ﷺ ـ: « **لو كنت متخذًا غير ربى خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً** » .

وقال : « أبو بكر كالغيث أينما وقع نفع » .

وقال القائل :

لا تفضل على العتيق صديقاً
فهو صديق أحمد المختار
وإن ارتبت فى الأحاديث فاقرأ
(ثانى اثنين إذ هما فى الغار)

وكذلك من فضائل أمنا عائشة أنها كانت مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة بنى قريظة ، وأن جبريل أهداها السلام ، روت هذا فقالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام** » ، فقالت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ـ ترى ما لا أرى ـ ترين النبى عليه السلام[1] .

وفضائل أم المؤمنين عائشة ليس لها حد ، وليس لها حصر ، ويكفيها فضلاً أن القرآن نزل بسببها خاصة ليثبت براءتها من فوق سبع سموات ، وذلك عندما وقعت حادثة الإفك .

وفى ذلك يقول الشيخ عبد القادر الجيلانى على لسان عائشة :

وتكلم الله العظيم بحجتى
وبراءتى فى محكم القرآن
والله فى القرآن قد لعن الذى
بعد البراءة بالقبيح رمانى
والله فضلنى وعظّم حرمتى
وعلى لسان نبيه برّأنى
والله وبّخ من راد تَنَقُّصِى
إفكًا وسبَّح نفسه فى شانى

وقد شهد النبى ـ ﷺ ـ لعائشة بالفضل والخير فقال عنها : « **والله ما علمت على أهلى إلا خيراً** » .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ٣ صـ١٤٤ .

ولقد مدحها حسان بن ثابت شاعر الرسول بقصيدة جاء فيها :

حصانٌ رزان ما تزن بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

مهذبة قد طهَّر الله خيمها
وطهرها من كل بغى وباطل

وقالت كبشة بنت رافع تمدح عائشة :

تتقى الله فى المغيب عليها
نعمة الله سرُّها ما يريمُ

خيرَ هدى النساء حالاً ونفساً
وأباً للعُلا نماها كريم

للموالى إذا رموها بإفكٍ
أخذتهم مقامع وجحيم

ليت من كان قد قفاها بسوء
فى حطام حتى يسول اللئيم

وقد قال عروة بن الزبير عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ: لو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك ، لكفَى بها فضلاً وَعُلُوٌ مجد ، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة .

وكذلك من فضائلها ــ رضى الله عنها ــ أنها روت عن رسول الله ــ ﷺ ــ ألفين ومائتين وعشرة حديثاً .

وقال الإمام الذهبى ــ رحمه الله ــ عنها : « إنها أفقه نساء الأمة على الإطلاق » .

وقد استقلت عائشة ــ رضى الله عنها ــ بالفتوى ، حيث كان الفاروق عمر ، وكذلك عثمان يرسلان إليها فيسألانها عن السنن .

وقد كانت ــ رضى الله عنها ــ تتأسى بالنبى ــ ﷺ ــ فى عبادته ، فكانت تكثر من الصلاة وخاصة صلاة الليل ، وكانت تكثر من الصيام ، وكانت كذلك فصيحةً ، بليغة حكيمة .

وكانت توصى بتعليم الأولاد والناشئة القرآن ثم الشعر والأدب لِتَعْذُبَ ألسنتهم وترق طباعهم ، وتهذب نفوسهم .

وكانت ـ رضى الله عنها ـ قد أثر عنها معرفتها بالطب ، وعجب عروة بن الزبير ابن أختها من ذلك فقال لها : يا أمتاه !! لا أعجب من فهمك ، أقول زوجة رسول الله وبنت أبى بكر ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس ، أقول ابنة أبى بكر وكان من أعلم الناس ! ولكن أعجب من علمك بالطب ! كيف هو ؟ ومن أين هو ؟

قال : فضربت على منكبه وقالت : أى عُرية ـ تصغير عروة ـ : إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يسقم عند آخر عمره ، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت ـ تصف ـ له الأنعات ، وكنت أعالجها ، فمن ثم .

ومن أقوالها فى هذا المجال : « من أكل التمر وترأ لم يضره » .

وقالت أيضاً : « لا سهرْ إلا لثلاثة : مُصَلّ أو عروس أو مسافر » .

وهذا يدل على معرفتها بضرر السهر وعواقبه الوخيمة الوبيلة على الصحة والعافية .

ونعيش الآن مع بعض من أقوالها المباركة حتى نتبين مدى علمها .

تقول عن المرأة : « المغزل بيد المرأة أحسن من الرُمح بيد المجاهد فى سبيل الله » .

وتقول : « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » .

وتقول : « من عمل بما يُسخط الله ، عاد حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذامّاً » .

وتقول : « إنكم لن تلقوا الله بشىء خير لكم من قلة الذنوب ، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف نفسه عن كثرة الذنوب » .

وسئلت ـ رضى الله عنها ـ : متى يكون الرجل مسيئاً ؟

فقالت : « إن ظن أنه محسن » .

وكانت ـ رضى الله عنها ـ أفقه الناس علماً وأعلم الناس رأياً فى العامة ، ولها فى هذا رأى فى الأنصار وحسن الثقة بهم ، قالت : « ما تبالى المرأة إذا نزلت بين بيتين من الأنصار صالحين ، ألا تنزل من أبويها » .

واشتاقت أم المؤمنين إلى الذين سبقوها إلى الدار الآخرة ، واشتد عليها المرض ، فلزمت فراشها ودخل عليها سيدنا عبد الله بن عباس — رضى الله عنهم — وكان عند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن فقال لها :

أبشرى ! فما بينك وبين أن تلقى محمداً — ﷺ — والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد .

ثم جعل يعدد فضائلها ، ويذكر أعمالها الطيبة ، فلما فرغ من حديثه قالت :

دعنى منك ياابن عباس ، فوالذى نفسى بيده لوددت أنى كنت نسياً منسياً .

وقد توفيت أم المؤمنين عائشة ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان سنة ثمان وخمسين من الهجرة ، وعندها من العمر ست وستين سنة ، ودفنت فى البقيع بعد صلاة الوتر فى نَفْسِ اللَّيْلة التى توفيت فيها .

واجتمع على جنازتها أهل المدينة وأهل العوالى ، وقالوا : لم نر ليلة أكثر ناساً منها .

وصلَّى عليها أبو هريرة — رضى الله عنه — ونزل فى قبرها خمسة من محارمها ، وجعلت أم سلمة تقول : « رحمك الله وغفر لك ، وعَرَّفنيكِ فى الجنة » .

وبعد فقد كانت هذه بعض المناقب والفضائل التى أثرت عن عائشة أم المؤمنين ، عسى أن تكون نبراساً تحيذى ومنهاجاً لنسائنا وبناتنا .

نسألك الله تعالى ذلك .

* * *

فضائل السيدة فاطمة (بنت رسول الله ـ ﷺ ـ) ـ رضى الله عنها ـ

ولدت فاطمة الزهراء فى مكة ، وقريش تجدد بناء الكعبة قبل النبوة بخمس سنين ، وفرح الرسول بمولدها فرحاً شديداً ، وقد أرضعتها السيدة خديجة بنفسها ولم تسترضع لها .

وكفاها فخراً أنها ابنة سيد ولد آدم ابنة محمد ـ ﷺ ـ .

وكفاها فضلاً أنها سيدة نساء أهل زمانها[1] ، وأفضل بنات النبى ـ ﷺ ـ[2] .

وكفاها مجداً أنها أصبحت زوجة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ.

وكفاها عزاً أنَّ ولدها الحسَنَ والحسيْنَ سيِّدَا شباب أهل الجنة .

فمن يدانى الزهراء فى الفخر والفضل والمجد والعز والشرف ؟

لقد قال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: « **إن الله تعالى ـ يرضى لرضاك ، ويغضب لغضبك** »[3] .

وذكر ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ منقبة عظيمة لفاطمة الزهراء تشير إلى فضلها وبركتها فقال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا قدم من غزو أو سفر ، بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يأتى فاطمة ، ثم يأتى أزواجه .

وقد روى القاضى عياض فى (الشفا) أن النبى ـ ﷺ ـ دعا الله ـ تبارك وتعالى ـ ألا يُجيع فاطمة .

(١، ٢) اللؤلؤ والمرجان ط الحلبى القاهرة جـ٣ صـ١٥٢/١٥٤ .

(٣) الاصابة لابن حجر جـ١٣ صـ٧١ ، ١١١ طبعة مطبعة الكليات الأزهرية القاهرة .

قالت فاطمة : فما جعتُ أبداً .

وعن عمران بن الحصين أن النبى ـ ﷺ ـ عاد فاطمة وهى مريضة فقال : « كيف تجدينك يابنية » ؟

قالت : إنى لوجعة ، وإنه ليزيدنى أنى مالِى طعام آكله .

قال : يابنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟

قالت : ياأبت فأين مريم بنت عمران ؟

قال : تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، أما والله لقد زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يُسر لسرور فاطمة ويفرح لفرحها وكذلك كان يغضب لغضبها ويحزن لحزنها .

فعن المسور بن مخرمة عن ابن شهاب أن علىّ بن حُسين حدثه أنهم حين قدموا المدينة من عند يزيد بن معاوية ، مَقْتَلَ حسين ابن على ، رحمة الله عليه لقيه المسور بن مخرمة فقال له :

هل لك إلىّ من حاجة تأمرنى بها ؟

فقلت له : لا .

فقال له : هل أنت معطى سيف رسول الله ـ ﷺ ـ ؛ فإنى أخاف أن يغلبك القوم عليه ؟ وايم الله ! لئن أعطيتنيه ، لا يخلص إليهم أبداً حتى تبلغ نفسى .

إن على بن أبى طالب خطب ابنة أبى جهل على فاطمة ـ عليها السلام ـ، فسمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ، يخطب الناس فى ذلك على منبره هذا ، وأنا يومَئذ مُحتلم .

فقال : « **إن فاطمة منى ، وأنا أخاف أن تفتن فى دينها** » .

ثم ذكر صهراً له من بنى عبد شمس فأثنى عليه فى مصاهرته إياه ، قال : حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فَوفَى لى ، وإنى لست أُحرم حلالاً ، ولا أُحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبداً »[1] .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ٣ صـ١٥٢ .

وأخرج البخارى من حديث المسور بن مخرمة . قال : إن علياً خطب بنت أبى جهل ، فسمعت بذلك فاطمة ، فأتت رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت : يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا علىٌّ ناكح بنت أبى جهل .

فقام رسول الله ـ ﷺ ـ فسمعته حين تشهد يقول : « أما بعد ، أنكحت أبا العاص بن الربيع ، فحدثنى وصدقنى ، وإن فاطمة بضعة منى ، وإنى أكره أن يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وبنت عدو الله ، عند رجل واحد »[1] .

فترك علىٌّ الْخِطْبَةَ .

وقد روى عن سيدنا على ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت : أينا أحب إليك أنا أو فاطمة ؟ قال : « **فاطمة أحب إلىّ منك ، وأنت أعز علىَّ منها** » .

ومن فضائل فاطمة أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أكرمها بزيادة الطعام فى بيتها والبركة فى كل حياتها .

فقد بعثت جارة لها بقطعة لحم ورغيفين ، فوضعت الخبز واللحم فى جفنة وغطته وأرسلت ابنها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لتطعمه من هذا الرزق الذى ساقه الله إليها .

فلما حضر رسول الله ـ ﷺ ـ أحضرت الجفنة وكشفت عنها فإذا بها مملوءة خبزاً ولحماً ، فلما نظرت إليها عجبت ودهشت ، وعرفت أن ذلك إنما هو بركة من الله .

وقدمت الطعام إلى رسول الله ـ ﷺ ـ . فلما رآه حمد الله وقال : « من أين لك هذا يا بنية ؟ » قالت : يا أبت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال النبى ـ ﷺ ـ: « **الحمد لله الذى جعلك يابنية شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل ، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه ـ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** » .

---

(١) فتح البارى جـ٦ صـ٢١٣ ط السلفية .

وأكل ـ ﷺ ـ وأكل معه على وفاطمة والحسن والحسين أزواج الرسول حتى شبعوا جميعاً وبقيت الجفنة كما هى ، ووزعت فاطمة منها على جيرانها ، وهكذا عمت البركة فى رزق فاطمة وفى بيتها وطعامها ـ رضى الله عنها ـ وأرضاها .

ومن أخص فضائل السيدة فاطمة الزهراء ريحانة الرسول ما حدث عند وفاة الرسول .

فعن عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ قالت : إنا كنا أزواج النبى ـ ﷺ ـ، عنده جميعاً ، لم تُغَادَرْ منا واحدة ، فأقبلت فاطمة ـ عليها السلام ـ تمشى ، لا والله ! ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ـ ﷺ ـ .

فلما رآها رحَّب قال : « مرحباً بِابْنَتِي » .

ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم سارَّها فبكت بكاء شديداً .

فلما رأى حزنها سارَّها الثانية ، فإذا هى تضحك .

فقلت لها : أنا من بين نسائه : خصَّك رسول الله ـ ﷺ ـ بالسر من بيننا ، ثم أنت تبكين ؟

فلما قام رسول الله ـ ﷺ ـ سألتُها : عما سارَّك ؟

قالت : ما كنت لأفشى على رسول الله ـ ﷺ ـ سِّره .

فلما توفى قلتُ لها : عزمتُ عليك ، بما لى عليك من الحق ، لما أخْبَرتِنِى .

قالت : أما الآن فنعم .

فأخبرتنى ، قالت :

أما حين سارَّنى فى الأمر الأول ، فإنه أخبرنى : « **أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة ، وإنه قد عارضنى به العام مرتين ، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب ، فاتقى الله واصبرى ، فإنى نعم السلف أنا لك** » .

قالت : فبكيت بكائى الذى رأيت .

فلما رأى جزعى سارَّنى الثانية .

قال : « **يافاطمة ! ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه الأمة ؟** »[1] .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزلت : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ .

دعا النبى ـ ﷺ ـ فاطمة فقال لها : « **إنه قد نُعيت إليه نفسه** » فبكت .

فقال : « **لا تبكين فإنك أول أهلى لحوقاً بى** » . فضحكت .

وبعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ ما رؤيت الزهراء ضاحكة حتى لحقت بربها من شدة حزنها ووجدها على موت أبيها ـ ﷺ ـ .

وقد توفيت الزهراء ـ رضى الله عنها ـ ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة .

وذكر عروة بن الزبير أن فاطمة توفيت بعد النبى ـ ﷺ ـ بستة أشهر وهى ابنة تسع وعشرين سنة ، وتحققت نبوءة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكانت أول أهله لحوقاً به ، وصلى عليها العباس ، وقيل إن علياً صلَّى عليه ، وقيل أبو بكر ، ونزل فى حفرتها : علىٌّ والعباس والفضل بن العباس ـ رضى الله عنهم جميعاً ـ.

ورضى الله عنها وأرضاها .

فضائل السيدة أسماء بنت أبى بكر
ـ رضى الله عنهما ـ

هى الصحابية البطلة التى ليست فى حاجة إلى تعريف أو تقديم ، فهى كالشمس فى رابعة النهار ، اقترنت بالإسلام واقترن الإسلام بها ، من أول يوم هبت نسائمه على الدنيا .

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ٣ صـ١٥٤ ط الحلبى ـ البخارى كتاب الاستئذان باب من تناجى بين يدى الناس .

هى صاحبة الذكر الجميل والسيرة العطرة ، وماتزال الأجيال تتنسم رائحتها العبقة على مدى الشهور والأعوام .

أسلمت قبل الهجرة ، وبايعت الرسول ـ ﷺ ـ وكان ترتيبها فيمن أسلموا الثامن عشر .

وكانت أسماء هى كاتمة السر أثناء هجرة الرسول ـ ﷺ ـ من مكة إلى المدينة ، وكان رفيقُ الرَّسُولِ فى هذه الرحلة المضنية أباها با بكر الصديق[1] ـ رضى الله عنهم ـ .

ومن أشهر أسمائها (ذات النطاقين) وسبب التسمية بهذا الإسم ما أوردته كتب الحديث والتراجم والسير أن أسماء وعائشة ابنتا الصديق اشتركتا فى تجهيز الطعام الذى سيأخذه رسول الله وأبو بكر ، ثم وضعتاه فى جراب ، ولما أرادتا ربط فم الجراب لم تجدا شيئاً ، فشقت أسماء نطاقها نصفين ، فربطت فم الجراب بنصفه ، وانتطقت بالنصف الآخر ، فلذلك سميت ذات النطاقين .

وقد أخرج هذا الحديث الإمام البخارى عن أم المؤمنين السيدة عائشة قالت : « ... فجهزناهما أحثَّ الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فأوكت ـ ربطت ـ به الجراب ، ولذلك كانت تسمى ذات النطاقين » .

وأكرمها الله فكانت هى أمّ[2] أول مولود فى الإسلام ، حيث كان اليهود قد ذكروا أنهم قد سحروا المسلمين فلا يولد لهم مولود ، وإذا بأسماء تضع أول مولود فى دار الهجرة من المهاجرين هو عبد الله بن الزبير ، وعند مولده فرح المسلمون وكبروا وهللوا وحمدوا الله على ولادة هذا المولود .

وأمر النبى الكريم ـ ﷺ ـ جده أبا بكر فأذّن فى أذنيه بالصلاة[3] ، ثم أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ ابن أسماء ـ رضى الله عنها ـ فحنكه بتمرة لاكها أولا بغيه الطاهر (فمه) ، فكان ريق رسول الله ـ ﷺ ـ أولَّ شىء نزل فى جوفه ، وسماه عَبْدَ الله ، وكنّاه بكنية جده أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ .

(١، ٢) خبر كان .

(٣) أى أذن فى الأذن اليمنى ثم أقام فى الأذن اليسرى ٣١ .

ونشأ عبد الله على حب التقوى والدين ، فكان كما وصفته أسماء :

قوّام الليل ، صوام النهار ، وكان يسمى حمامة المسجد .

وكانت أسماء ـ رضى الله عنها ـ سخية اليد ، كريمة الطبع ، فُطرت مع السخاء وفُطر السخاء معها ، ولها مع الجود والكرم مواقف رائعة ، وهى التى كانت تقول لبناتها ولأهلها : أنفقوا أو أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضل ، فإنكن إن انتظرتن الفضل لم تفضلن شيئاً ، وإن تصدقتن لم تجدن فقده .

ولا عجب ، فهى التى أوصاها رسول الله ـ ﷺ ـ قائلاً لها : « **لاتُوكى فيوكى الله عليك** » .

ولا عجب !! فهى التى قالت لرسول الله ـ ﷺ ـ: أتتنى أمى وهى راغبة ـ أى مشركة ـ آأصلها ؟ فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين** ﴾ [سورة الممتحنة الآية : ٨] ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم . فقال : « **نعم صلى أمك** » .

وهكذا أوصاها النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلّمها أن البر واجب ، وأن صلة أمها حق عليها ، وهذا يؤكد أن الإسلام هو دين الرحمة ودين الخير والبر .

ولقد روت أسماء عن الرسول ـ ﷺ ـ ثمانية وخمسين حديثاً شريفاً نطق بها الفم الشريف صاحب الرسالة العصماء .

وبارك الله لها فى عمرها ، فعاشت ما يقرب من مائة سنة لم يسقط لها سن ، وظلت محتفظة بعقلها ورأيها الصائب وكلماتها الرائعة ، وشهدت موقعة اليرموك مع زوجها الزبير ـ رضى الله عنه ـ وكان لها موقف شهير فى هذه الموقعة .

وكذلك كانت تُحسن تعبير الرؤيا[١] .

وقيل إن سعيد بن المسيب ـ رضى الله عنه ـ كان من أعبر الناس للرؤيا ، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبى بكر ، وأخذته أسماء عن أبيها ـ رضى الله عنه ـ . وكانت أسماء تُصدع فتضع يدها على رأسها وتقول : « بذنبى ... وما يغفره الله أكثر » .

---

(١) أى : تفسيرها وتأويلها .

وها هى أسماء تضرب أروع الأمثلة فى الثبات والوقوف بجرأة وصلابة حينما جاءها ابنها عبد الله بن الزبير ــ رضى الله عنه ــ يستشيرها ويبثها حزنه لمَّا تعرض له الحجاج بن يوسف الثقفى وجنوده وهى فى مكة المكرمة ، وأحجار المنجنيق كانت تنهمر عليه من كل مكان .

قال لها : يا أم : قد خذلنى الناس حتى أهلى وولدى ، ولم يبعد لى أمل ، والقوم يعطوننى ما أردتُ من الدنيا ، فما رأيك ؟

فقالت : يابنى عش كريماً ، ومُت كريماً ، لا يأخذك القوم أسيراً .

وودع عبد الله أمه أسماء بنفس مطمئنة راضية قائلاً لها :

أسماء إن قُتلت لا تبكينى
لم يبق إلا حسبى ودينى
وصارم لانت به يمينى

وسقط عبد الله شهيداً ، وصلبه الحجاج فى المسجد الحرام .

وقيل لابن عمر ــ رضى الله عنها ــ: إن أسماء فى ناحية المسجد ، فمال إليها وعزّاها بابنها ، وقال :

إن هذه الجثث ليست بشىء ، وإنما الأرواح عند الله ، فاتقى الله واصبرى ، فقالت : وما يمنعنى وقد أُهدى رأسُ يحيى بن زكريا إلى بغىٍّ من بغايا بنى إسرائيل .

ودخل الحجاج شامتاً أمام أسماء قائلاً لها : « إن ابنك ألحد فى هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم » .

فقالت له أسماء : « كذبت ! كان براً بوالدته ، صواماً ، قواماً ، ولكن قد أخبرنا رسول الله ــ ﷺ ــ: « **إنه سيخرج من ثقيف كذابان ، الآخر منهما شر من الأول ، وهو مُبير** » .

فانصرف الحجاج دون أن يراجعها .

وكانت أسماء آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة ، وكانت وصيتها لأهلها : « اجمروا ثيابى إذا مُت ، ثم حنطونى ، ولا تذروا على كفنى حنوطاً ، ولا تتبعونى بنار ، ولا تدفنونى ليلاً » .

وتوفيت ـ رضى الله عنها ـ سنة ثلاث وسبعين من الهجرة .

انتقلت إلى جنات ونهر . ﴿ **فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ .

[سورة القمر الآية : ٥٥]

انتقلت لترى جزاءها فى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فقد قال لها الحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ مبشراً إياها بالجنة حينما أخبر بأنها شقت نطاقها . قال لها : « **إن لك بهما نطاقين فى الجنة** » . رضوان الله تبارك وتعالى عليها .

استوصوا بالنساء خيراً

فى خطبة حجة الوداع ، وفى يوم الحج الأكبر ، وفى عرفات ، خطب النبى ـ ﷺ ـ وبيّن لهم مبادىءَ وأسسَ الإسلام ومَنهَجَه فى الحياة ، وحذر من العودة إلى الشرك والكفر ، وكذلك من سفك الدماء وألا يضرب المسلمون رقاب بعض ، ونهى عن استباحة الأعراض واغتصاب الأموال ، وبين الحقوق بالنسبة لأصحاب الحقوق ووضع الحدود ورسم معالمها ببيانه المعجز ، وحثّ على السمع والطاعة حتى وصل إلى الحديث عن النساء فأوصى بهن خيراً ، وكان مما جاء فى وصيته ـ ﷺ ـ : « **استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عوان عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله** »[1] .

[رواه ابن ماجة والترمذى]

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شىءٍ فى الضِّلَعِ أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً** »[2] .

---

(١) منتقى الترغيب والترهيب جـ٢ صـ٥٤٧ وما بعدها .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ط الحلبى القاهرة جـ٢ صـ١١٠ ، فتح البارى جـ٩ صـ٢٥٣ ط السلفية ومسلم للنووى جـ١٠ صـ ٥٧ .

ومن هنا فإننا نلج هذا الباب لنلقى عليه مزيداً من الضوء ، نستوصى فيه بالنساء خيراً كما أمرنا رسول الله - ﷺ - .

فما من شك أن النساء شقائق الرجال ، وبين الفريقين روابط تكوينية ووشائج روحانية ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى أول سورة النساء .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ . [سورة النساء الآية : ١] .

والجميع من أصل واحد هو آدم وزوجه قال تعالى -: ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ . [سورة الحجرات الآية : ١٣]

والخطاب حينما يوجه إلى النساء فإنما هو يوجه إلى الأم وإلى الزوجة وإلى البنت والأخت .. إلخ

المـرأة هـى الأم

إذا ما تحدثنا عى أن المرأة هى الأم ، وجدنا أن القرآن الكريم قد وضع هذا الأمر موضع التقديس والإجلال ، فقد قرنه الله بحقه تعالى .

فقال تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٣٦] .

وقال - تعالى -: ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إمَّا يبلغنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً** ﴾ [سورة الإسراء الآيتان : ٢٣ - ٢٤] .

وقد رجَّحَت السُّنَّة المطهرة كفة الأم وذلك حينما جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « **من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من . قال : أمك . قال : ثمن من . قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك** »[1] .

[رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة]

هذا السائل يعلم أن من ذوى قرابته ورحمه من هو أهل للصحبة ، ولكنه يريد معرفة مراتب هؤلاء فى الصحبة ، وأيهم أحق بها وأولى من الآخر ، وذلك لأن أحق أفعل تفضيل ، وهو يقتضى ذلك .

وقد وقع تكرار الأم ثلاثاً وذكر الأب فى الرابعة فى هذه الرواية .

ومن هنا فقد استدل العلماء بهذا الحديث على تأكيد حق الأم على حق الأب وأن لها من البر ثلاثة أمثال ما للأب ، وكأن ذلك لما تتحمله الأم وتتعرض له من الضعف والوهن طوال مدة الحمل ثم ما تعانيه من ألم المخاض والوضع ثم ما تقوم به من إرضاع الطفل والسهر على راحته مدة عامين ، وهذه الثلاثة تنفرد بها الأم ، ثم بعد ذلك تشارك الآباء فى التربية وحسن الرعاية والعناية طيلة حياته ، وكم من أم نال من صحتها الحمل ، وكم من الأمهات من أضرَّ بهن الوضع ، وسبب لهن أمراضاً مزمنة ؟ وأى أم لم تسهر الليالى الطوال ولم يلازمها الأرق والسهاد إذا ما بكى طفلها أو أرق أو توعك ؟

فليس بعجيب من المشرع الحكيم العليم بخفايا الأمور أن يجعل للأم من الحقوق أضعاف ما للأب .

وقد أشار الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى هذا فى قوله سبحانه : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين** ﴾ [سورة لقمان الآية ١٤] .

وفى قوله سبحانه : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كُرْهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ [سورة الأحقاف الآية : ١٥] .

فقد ذكر بعد الوصية بالوالدين ما تختص به الأم عن الأب تنبيهاً إلى عظم حقها وإيثارها على الأب بالتقديم .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ط الحلبى جـ٣ صـ١٨٥ ، والبخارى فى الأدب .

فالآية الأولى ذكرت الحمل والفصال ، والثانية ذكرت آلام الحمل والوضع وما تتحمله فى الرضاع ، ويؤيد تقديم حقِّ الأم واختصاصها بهذه الأمور الثلاثة ، حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده :

« إن امرأة قالت يارسول الله إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء ، وثديي له سقاء ، وحجرى له حواء ، وإن أباه طلقنى وأراد أن ينزعه منى » .

فقال : عليه الصلاة والسلام وهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة : « **أنت أحق به ما لم تنكحى** » [أخرجه أبو داود والحاكم]

فقد توسلت باختصاصه بها فى الأمور الثلاثة إلى اختصاصها به فى الحضانة ، وإلى تأكد حق الأم وتقدمها على الأب فى البر .

ذهب جمهور العلماء وقال بعضهم : يكون البر بينهما سواء .

ونقل هذا القول عن الإمام مالك ــ رحمه الله ــ وإليه ذهب بعض الشافعية .

ولعل القائل بهذا يخرج التكرار الوارد فى حق الأم مخرج التأكيد لا التأسيس ، والحق هو الأول ، حتى لقد نقل الحارث المحاسبى الإجماع على تفضيل الأم على الأب فى البر .

والمنقول عن الإمام مالك ليس صريحاً فيما نسب إليه ، فقد ذكر ابن بطال قال : « سئل مالك : طلبنى أبى فمنعتنى أمى . قال : أطع أباك ولا تعصى أمك » .

واستنتج من ذلك أنه يرى أن برهما سواء ، وليست الدلالة على ذلك بواضحة ، وكأن الإمام مالكاً ينبه من يقع فى هذه الورطة أن يكون على شيء من اللباقة وحسن التخلص فلا يغضب أحدهما على حساب إرضاء الآخر ، ويمكن للإبن فى هذه الصورة أن يسترضى أمه فى الإجابة وبذلك يطيع أباه ولا يعصى أمه .

وقد سئل الليث عن هذه المسألة فقال : « أطع أمك فإن لها ثلثى البر » .

ويظهر أنه اعتمد فى هذا على ما ورد فى بعض الروايات من تكرار حق الأم مرتين ، وأغلب الروايات الثابتة على تكرار حق الأم ثلاثاً ، فلُترد إليها الروايات المخالفة لكثرتها ، ولأنها هى التى يشهد لها واقع المسلم .

وبر الوالدين يكون بطاعتهما فيما ليس بمعصية ، والإحسان إليهما ، والتواضع لهما ، وعدم الإساءة لهما بقول أو فعل ، والشفقة عليهما والتودد إليهما واستعمال غاية الأدب فى خطابهما ودعائهما[1] فى حياتهما ، والدعاء لهما والإحسان إلى أصدقائهما وذوى قرباهما بعد وفاتهما ، ولا يَخْتَصُّ بر الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل ولو كانا كافرين فإنه يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد وليسا حربيين .

قال تعالى : ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً** ﴾ [سورة لقمان الآية : ١٥] .

وقال : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ [سورة الممتحنة الآية : ٨] .

وفى صحيح البخارى عن أسماء قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش ومدتهم إذْ عاهدوا النبى ـ ﷺ ـ مع أبيها ، فاستفتيت النبى ـ ﷺ ـ فقلت : إن أمى قدمت وهى راغبة ـ يعني فى برى وصلتى أو راغبة عن الإسلام ـ أفأصلها ؟ قال : « **نعم . صلى أمك** » .

وفى رواية أخرى : فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **لا ينهاكم الله ...** ﴾ [سورة الممتحة الآية : ٨] . الآية[2] .

وهذا غاية البر بالأمهات .

وإذا كانت بعض الأمم فى العصور الحديثة قد عملت على تكريم الأمهات وخصَّصت يومًا لذلك سمته (يوم عيد الأم) ، فقد سبق الإسلام إلى هذا التكريم بما لا يزيد عليه أحد من قرابة خمسة عشر قرناً من الزمان ، ودعا إلى الإحسان إلى الأبوين وطاعتهما حتى ولو كانا مشركين ـ إلا فيما لا يرضى الرب ولا العبد ـ وهذا غاية السمو فى تكريم الأمومة والأبوة .

وبحسب[3] الإسلام فضلاً وشرفاً فى هذا أن الله ـ عز وجل ـ لم يأمر بتوحيده وعدم الإشراك به إلا وأَعْقَبَ ذلك بالإحسان إلى الوالدين والبِّر بهما .

---

(١) الدعاء هنا : النداء اللين الممزوج بالبر والرحمة .

(٢) فتح البارى ط السلفية القاهرة جـ١٠ صـ٤١٣ .

(٣) يكفى .

قال تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألاَّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾ [سورة الأنعما الآية : ١٥١] .

وقال : ﴿ **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ٢٣] .

وقرن شكرهما بشكره فقال تعالى : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير** ﴾ [سورة لقمان الآية : ١٤] .

أما السنة فقد استفاضت ببر الوالدين ولا سيما الأم كما رأينا فى هذا الحديث ، وكما سنرى فى قصة العابد جريج .

حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنا حميد بن هلال عن أبى رافع عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « كان جريج يتعبد فى صومعة فجاءت أمه . قال حميد فوصف لنا أبو رافع صفة أبى هريرة لصفة رسول الله ــ ﷺ ــ أمه حين دعته ، كيف جعلت كفها فوق حاجبها ثم رفعت رأسها إليه تدعوه فقالت : « **يا جريج أنا أمك كلمنى ، فصادفته يصلى .**

فقال : اللّهم أمى وصلاتى . فاختار صلاته فرجعت ، ثم عادت فى الثانية فقالت : يا جريج أنا أمك فكلمنى .

قال : اللّهم أمى وصلاتى . فاختار صلاته .

فقالت : اللّهم إن هذا جريج وهو ابنى وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى ، اللّهم فلا تمته حتى تريه وجوه المومسات[1] .

قال : ولو دعت عليه أن يُفتن لفُتن .

قال : وكان زاعى ضأن يأوى إلى ديره .

قال : فخرجت امرأة من القرية فتعرضت له وكلمته فأبى ، فأتت راعيا ما مكنته من نفسها فولدت غلاماً . فقيل لها : ما هذا ؟

قالت : من صاحب هذا الدير .. من جريج .

---

(١) فتح البخارى جـ٦ صـ٤٧٦ ، اللؤلؤ والمر.ان ط الحلبى جـ٣ صـ١٨٦ .

قال : فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فأتوه فصادفوه يصلى فلم يكلمهم فأخذوا يهدمون ديره فلما رأى ذلك نزل إليهم فقالوا له : سل هذه ؟

فتبسم ثم مسح رأس الصبى فقال : من أبوك ؟

قال : أبى راعى الضأن .

فلما سمعوا ذلك قالوا : نبنى صومعتك من ذهب .

قال : لا . إلا من طين »[1] .

وهذا الحديث وإن لم يقل فيه أبو هريرة قال رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أن له حكم المرفوع صراحة بدليل قوله فى الحديث : ووصف لنا أبو رافع صفة أبى هريرة لصفة رسول الله ـ ﷺ ـ أمه[2] .

وكان جريج يتعبد فى صومعة ، وقد بينت رواية أحمد السبب فى ترهبه وانقطاعه للعبادة وهو : « كان رجل من بنى إسرائيل تاجراً ، وكان ينقص مرة ويزيد أخرى . فقال : ما فى هذه التجارة من خير ، لألتمسن تجارة هى خير من هذه ، فبنى صومعتة وترهب فيها ، وكان يقال له جريج ... ». فذكر الحديث .

وقد دلت هذه الرواية على أنه كان بعد عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وأنه كان من أتباعه لأن الذين ابتدعوا الترهب وحبس النفس فى الصوامع كانوا بعد عيسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى ـ: **﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان فما رعوها حق رعايتها ﴾** .

[سورة الحديد الآية : ٢٧]

والصومعة هى البناء المرتفع المحدد أعلاه ، وزنها فوعله من صمعت الشىء إذا دققته لأنها دقيقة الرأس .

« فجاءت أمه . قال حميد : فوصف لنا أبو رافع صفة أبى هريرة لصفة رسول الله ـ ﷺ ـ أمه حين دعت ، كيف جعلت كفها فوق حاجبها ، ثم رفعت رأسها إليه تدعوه » .

(١،٢)هذا الحديث متفق عليه كواقعة حديث وهى موثقة فى الصحيحين .

وفى هذا ما يدل على جواز حكاية الأحوال والصفات إذا لم تكن على وجه السخرية والمجون ، وكانت لبيان علم أو زيادة فائدة ، وفى فعل رسول الله ـ ﷺ ـ وحكايته لصفتها تبيين للعلم بالعمل ، وتوضيح للأحوال بما يزيل اللبس فيها .

وفى حكاية أبى هريرة لفعل رسول الله ـ ﷺ ـ ما يدل على تثبته من الرواية ، وتأكده منها .

فقالت ياجريج : أنا أمك كلمنى ، فصادفته يصلى ، فقال اللهم أمى وصلاتى .

فى رواية عمران بن حصين : أن أمه كانت تأتيه فتناديه فيكلمها ، فأتته يوماً وهو فى صلاته فدعته فقال اللهم أمى وصلاتى .

وفى رواية البخارى : فقال أجيبها أو أصلى ، ومعنى قوله : « أمى وصلاتى » أى اجتمعا علىّ إجابة أمى وإتمام صلاتى فوفقنى لأفضلهما . وقد ترجح عنده باجتهاده إقباله على صلاته على إجابة أمه .

ثم إن هذا القول محمول على أنه قاله فى نفسه ، لا أنه نطق به ، والكلام كما يطلق على اللفظى يطلق على النفس .

وروى عن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « زورت فى نفسى مقاله » . أى أعددت كلاماً نفسياً . وقال الشاعر العربى :

إن الكلامَ لَفِى الْفُؤَادِ وَإنَّما
جَعلَ اللسان على الفؤاد دَليلاً

وقيل : يحتمل أن يكون نطق به على ظاهره ، لأن الكلام عندهم فى شريعتهم كان مباحاً ، وكذلك كان فى صدر الإسلام حتى نسخ ذلك الجمع بين الصلاة والكلام المباح .

والذى يظهر من ترديده فى قوله : « أمى وصلاتى » أن الكلام عندهم لم يكن مباحاً ، وأنه يقطع الصلاة ، فلذلك لم يجبها ، ولو أنه كان مباحاً لما تردد هذا التردد ولأجابها واستمر فى صلاته .

وقد بينت رواية أبى رافع هذه أنها دعته مرتين ، وكذلك فى رواية محمد ابن سيرين عن أبى هريرة .

وفى رواية البخارى فى كتاب الصلاة أنها دعته ثلاث مرات ، وقد جاءت رواية مسلم التى ذكرها بعد هذه الرواية بأوضح من هذا ، فقد بينت أنها دعته ثلاث مرات فى ثلاثة أيام ، وأنها صادفته فى الأيام الثلاثة وهو يصلى ، ولعل تكرر دعائها له مع عدم الإجابة هو الذى أثار حفيظتها فدعت عليه بما دعت .

وقد دل حديث جريج على إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع ، لأن الظاهر أنه كان فى صلاة نفل لا فرض .

وقد اختلف العلماء فى المعنى الذى لأجله اعتبر جريج مقصراً فى حق أمه حتى استجاب الله دعاءها فيه .

فقال الإمام النووى فى شرحه على مسلم : قال العلماء : هذا دليل على أنه كان الصواب فى حقه إجابتها ، لأنه كان فى صلاة نفل والاستمرار فيها تطوع لا واجب ، وإجابة الأم وبرها واجب، وعقوقها حرام ، وكان يمكنه أن يخفف فى صلاته ويجيبها ثم يعود إلى صلاته ، فلعله خشى أن تدعوه لمفارقة صومعته والعود للدنيا ومتعلقاتها وحظوظها ، وتضعف عزمه فيما نواه وعاهد عليه الله تعالى .

وما ذكره الإمام النووى من الاعتذار عنه غير مسلم ، فقد تقدم أنها كانت تأتيه فيكلمها ، والظاهر أنها كانت تشتاق إليه فتزوره وتقنع برؤيته وتكليمه ، وكأنه إنما لم يخفف ثم يجيبها ، لأنه خشى أن ينقطع خشوعه واتصاله بربه .

وقد روى الحسن بن سفيان من حديث يزيد بن حوشب عن أبيه أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **لو كان جريج فقيهاً لعلم أن إجابة أمه أولى من عبادة ربه** » .

ويزيد هذا مجهول ، ومقتضى هذا الحديث أن الإجابة أولى من الصلاة فرضاً كانت أم نفلاً ، وهو وجه فى مذهب الشافعى .

قال الحافظ ابن حجر فى [فتح البارى بشرح صحيح البخارى] .

والأصح عند الشافعى أن الصلاة إن كانت نفلاً وعلم تأذى الوالد بالترك وجبت الإجابة وإلا فلا ، وإن كانت فرضاً وضاق الوقت لم تجب الإجابة ، وإنه لم يضعق الوقت وجبت عند إمام الحرمين ، وخالفه غيره لأنها تلزم بالشروع .

وعند المالكية : أن إجابة الوالد فى النافلة أفضل من التمام فيها .

وقال القاضى عياض : ليس فى الحديث أنه كان فى صلاة فرض ، ولعله شرعه حرمة قطع النافلة ، فهو من تعارض فرضين . البر ووجوب التمادى[1] ، ولكنه كان يمكنه أن يخفف ويجيبها ، ولعله خشى أن تنزله من صومعته ، وتذهب به ليكون معها ، أو خشى أن مكالمتها يأنس بها من غير ما انقطع إليه ، وتحل عزيمته فيما التزم ، ولعل شرعه كان يوافق ذلك .

هذا فى عدم قطع الصلاة .

ولكن يبقى شىء آخر ، وهو أن البر فرض والعزلة وصلاة النافلة طول النهار ليست فرضاً ، فلعله غلط فى إيثار العزلة والصلاة ، ولذلك أجاب الله سبحانه دعاءها عقاباً له .

وقال القرطبى : جريج كان عابداً ولم يكن عالماً ، إذ بأدنى نظر ترجح الإجابة ، لأن البر واجب وصلاة النفل ندب ، فلا تعارض يوجب الإشكال ، فكان يخفف ويقطع لاسيما وقد تكررت إليه لشوقها واحتياجها لمكالمته .

وهذا كله يعين إجابتها . ألا ترى أنه أغضبها بإعراضه عنها وإقباله على صلاته ، ويبعد اختلاف الشرائع فى وجوب البر ، وعند ذلك دعت فأجاب الله سبحانه دعاءها تأديباً له وإظهاراً لكرامتها .

ومهما يكن من شىء فقد دل الحديث على عظم حق الأم وبرها وإجابة دعوتها ، وأن الإقبال عليها أعظم من الإقبال على الصلاة ، وجريج لم يتعمد المعصية ، ولا قصد إلى العقوق ، وكل ما هناك أنه تردد بين أمرين : أيؤثر حق أمه على حق ربه ؟ أم يؤثر حق ربه على حق أمه ؟

وقد اجتهد الرجل فأداه اجتهاده إلى ترجيح حق ربه ، ولكن أمه غضبت عليه ودعت عليه فاستجاب الله فيه الدعاء ، وذلك ليرينا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يجب علينا التحرز عن إغضابها ، والبعد عن كل ما يُشْتَمُّ[2] منه أنه عقوق ، ولو كان ذلك بناء على اجتهاد ونظر ، إذ لا يخلو ذلك من خطر ، وفى هذا سمو فى بر الأم إلى أعلا درجاته .

---

(١) الاستمرار فى الصلاة وإتمامها .

(٢) يفهم .

« فقالت : اللهم إن هذا جريج ، وهو إبنى ، وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى ، فلا تمته حتى تريه وجوه المومسات » .

قولها : إن هذا جريج وهو ابنى تقصد به التحسر والتفجع لعدم طاعته إياها ، مع أنه ابنها ومن شأن البنوة البر ، ولو أن جريجاً ابنها كان من عامة الناس وصالحيهم لهان عليها الأمر ، ولكنه هو من هو فى العبادة والصلاح .

« المومسات » جمع مومسة بضم الميم وكسر الثانية أى الزوانى البغايا المتجاهرات بهذا ، والواحدة مومسة ، وجمع فى بعض الروايات « مياميس » . وأنكره ابن الخشاب وجوز فيه صاحب المطالع الهمزة بدل الياء « مآميس » .

والمراد وجوه المومسات كما فى الرواية الآتية كى تتفق الروايتان ، والمراد بذلك أن يناله شىء من كيدهن ، وكأنه لما أعرض عن وجهها وهو خير الوجوه وأحبها بالنسبة إليه ، دعت عليه أن يريه الله أقبح الوجوه وأكثرها رذيلة وهى وجوه المومسات وقد كان .

« ولو دعت عليه أن يفتن لفُتن » .

أى ولو شاءت أن تدعو عليه بالفتنة كالوقوع فى الزنى أو القتل أو شرب الخمر ونحوها من المحرمات والفواحش الظاهرة لقبل الله دعاءها ولا فتتن .

وفى هذا بيان أن دعوة الأم ليس بينها وبين الله حجاب ، وقد تلطفت أم جريج مع غضبها فى الدعاء عليه ، وذلك لما جبلت عليه الأمهات من الشفقة على الأبناء وكراهية الشر لهم ، والظاهر أنها كانت فاضلة عاقلة ، ألا تراها حين تحرزت فى دعائها قالت : حتى تريه وجوه المومسات ولم تقل غير ذلك .

« قال : وكان راعى ضأن يأوى إلى ديره » .

القائل هو أبو هريرة راوى الحديث عن النبى - ﷺ -، وقد ذكرت « قال » فى هذا الحديث عدة مرات لأن الحديث إذا طال يستحسن ذكرها ، وكأنها بمثابة التنبيه لما يجىء بعدها ووصله بما قبلها .

الدير : بفتح الدال المهملة : كنيسة منقطعة عن العمارة يأوى إليها رهبان النصارى لتعبدهم ، والدير والصومعة بمعنى .

« فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعى فحملت فوضعت غلاماً ، فقيل لها ما هذا ؟ قالت : من صاحب هذا الدير » .

وقد جاءت رواية وهب عن جرير بن حازم عن أبيه عند الإمام أحمد بأوضح من هذا وأتم ، ففيها :

« فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج ، فقالت بغى منهم إن شئتم لأفتننه لكم .. إلخ .. » .

ومعنى يتمثل بحسنها أن يضرب بها المثل فى الحسن والجمال ، وقد دل هذا على أن ما حدث كان أمراً مدبراً من أشرار بنى اسرائيل وهذه المرأة .

« ما هذا » ؟ فى الروايات الأخرى « ممن هذا » ؟ قالت : مِنْ جريج .

ومعنى : ما هذا ؟ ما صفة هذا الذى وضعته ومن أين حملت به ؟

« قالوا فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم » .

الفؤوس بالهمزة جمع فأس كرأس ورؤوس وهى معروفة .

والمساحى جمع مسحاة ، وهى كالجرفة إلا أنها من حديد كما قال الجوهرى من علماء اللغة .

« فنادوه فصادفوه يصلى فلم يكلمهم ، قال فأخذوا يهدمون ديره ، فلما رأى ذلك نزل إليهم ، فقالوا له سل هذه . قال : فتبسم » .

لعل تبسمه لأنه تذكر دعوة أمه عليه واستجابة الله ـ سبحانه ـ دعاءها فيه ، فكان ما كان من ادعاء هذه المرأة البغى عليه أن الغلام منه ، وهو تبسم ممزوج بالندم والتحسر ، وشر البلية ما يضحك كما يقال .

« ثم مسح رأس الصبى فقال من أبوك ؟ قال : أبى راعى الضأن » .

فى رواية مسلم الآتية : « أن طعن الصبى فى بطنه ، ولا مانع من حصول الأمرين معاً فى البطن ومسح الرأس ، ولعله أراد بفعله هذا أن يَشْرَحَ اللهُ قَلْبَ الصَّبِّى ويمنحه العقل والتمييز الكاملين فينطق بالحق والواقع » .

وقد جاء فى رواية مسلم الآتية : «أنه قال : دعونى حتى أُصَلِّى : فصلى ركعتين » .

وفى رواية البخارى : « فتوضأ وصلى ، فلما أتى للغلام ومسح على رأسه ثم طعن بأصبعه فى بطنه فقال له : من أبوك ؟ فأنطقه الله بالحق كرامة لجريج ، فقال أبى راعى الضأن » .

وقد اختلف فى الأب من الزنى ، هل يسمى أباً أم لا ؟ مع اتفاقهم على أن الزانى ليس بأب شرعى ، وقد أثيرت هذه المسألة فى درس الشيخ ابن عبدالسلام ، وقد ذهب الشيخ ابن عرفة أنه يسمى أباً ، واحتج بهذا الحديث ، لأن جريجاً نسب الولد لأبيه من الزنى ، وصدّقه الله فى هذا لِمَا خَرَقَ الله له العادة فى نطق الصبى .

وقوله : « أبى فلان الراعى » .

فكانت تلك النسبة صحيحة ، فيلزم أن يجرى فيها أحكام الأبوة والبنوة ، وخرج التوارث بدليل ، فبقى ما عدا ذلك على حكمه ، وبهذا الحديث يحتج لرواية ابن القاسم فى المدونة أن الزنا يحرم الحلال فلا تحل أم المزنى بها للزانى وكذلك لا تحل للزانى البنت المخلوقة مِنْ مَائِهِ وهو المشهور .

وقد خالف فى ذلك الشافعية وغيرهم وابن الماجشون من المالكية فقالوا : تحل له .

ووقع فى رواية البخارى أن جريجاً قال للغلام : يا بابوس .

وقد زعم بعض العلماء أنه اسمه ، والحق خلاف ذلك ، وإنما معناه الصغير .

« فلما سمعوا ذلك منه قالوا : نبنى ما هدمنا من ديرك بالذهب قال : لا ، ولكن أعيدوه تراباً كما كان ثم علاه » .

وهكذا نجد أن جريجاً مرَّ بهذه المحنة بسبب دعاء أمه عليه لما لم يجبها وهو فى صلاته ، ولكن الله أنجاه منها وأبرأه مما نسب إليه كذباً بفضل صلاته وعبادته واستقامته .

وقد أعظم الناس أمره بعد هذا وندموا على ما فعلوا به وبديره وعرضوا عليه أن يبنوه بالذهب والفضة ولكنه أبى إلا أن يكون بالطين كما كان ، ثم علاه واستمر فى انقطاعه إلى عبادة ربه .

وقد احتج بهذا الحديث من يقول يقضى فى المتلفات كلها بالمثل ، وهو قول الشافعى والكوفيين ولمالك فى العتبية مثله ، والمشهور عنه وعن أصحابه يقضى بالمثل فى الكيل والموزون والمعدود ، وأما ما عداها فإنما يقضى فيه بالقيمة .

قال بعض العلماء : ولا حجة فيه للأولين لأنه شرع غيرنا[1] وليس فيه أنهم أمروا بذلك .

ألا ترى إلى قولهم : « بنيه بذهب » فإنما هو بتراضيهم ، فكذلك بناؤه بالطين ، ولا خلاف أن الهادم لو التزم الإعادة ورضى صاحبه ـ أنه يجوز ذلك » . وأجيب هذا القائل بأن شرع من قبلنا شرع[2] لنا مَالَمْ يرد فى شرعنا ما يخالفه وهنا كذلك .

نعم يبقى أنه لم يأمرهم به نبى ولا من يُقتدى به حتى يكون شرعاً : اللّٰهم إلا إذا قلنا إن جريجاً كان عالماً وكان يقتدى به ، وقد سمعت فيما سبق ما يعارض ذلك .

« أعيدوه تُرَاباً كَمَا كَانَ » .

المراد بالتراب : الطين . بدليل الرواية الثانية : « قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت » .

فأطلق التراب وأراد الطين لأنه جزؤه المهم ، وظاهر هذا أن الصومعة كانت مبنية من اللبن وهو الطوبُ النِّيُّ .

لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة

حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا جرير بن حازم وحدثنا محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلى فقالت ياجريج . فقال يارب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت يا جريج فقال يا رب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت ياجريج ، فقال يارب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت ياجريج فقال يارب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت ياجريج فقال أى رب أمى**

(١، ٢) شرع غيرنا : تعبير دقيق .. ويحتمل على أن المقصود هو شرح من جعلنا .

وصلاتى ، فأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت ياجريج فقال يارب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت ياجريج فقال أى رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته ، فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه الومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يُتمثل بحسنها فقالت إن شئتم لأفتننه لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعياً كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت هو من جريج ، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه ، فقال ما شأنكم قالوا : زنيت بهذه البغى ، فولدت منك . فقال أين الصبى ؟ .

فجاءوا به فقال دعونى حتى أُصَلِّى فَصَلَّى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال ياغلام من أبوك ؟

قال : فلان الراعى .

قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب .

قال : لا أعيدوها من طين كما كانت ، ففعلوا .

وبينا صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع . قال : فكأنى أنظر إلى رسول الله - ﷺ - وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فمه فجعل يمصها قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيتِ سرقتِ وهى تقول : حسبى الله ونعم الوكيل .

فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها .

فترك الرضاع ونظر إليها فقال : اللهم اجعلنى مثلها .

فهناك تراجعا الحديث ، فقالت حَلْقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيتِ ، سرقتِ .

فقلت : اللّهم لا تجعل ابنى مثلها . فقلت : اللّهم اجعلنى مثلها .

قال : إن ذاك الرجل كان جباراً فقلت : اللّهم لا تجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن ، وَسَرَقْتِ ولم تَسْرِق فقلت : اللّهم اجعلنى مثلها » .

[رواه البخارى]

شرح الحديث :

« لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة »

المهد : هو وطاء الصبى وكل ما يسوى له ويكون سريره .

وعن قتادة فى قوله تعالى :

﴿ **كيف نكلم من كان فى المهد صبياً** ﴾ [سورة مريم الآية : ٢٩] ؟

حجر أمه ، وقد ذكر فى هذا الحديث الثلاثة وهم :

ـ عيسى ـ عليه السلام ـ .

ـ وصبى جريج .

ـ والصبى المتعوذ من الجبار أن يكون مثله ، ولم يذكر غيرهم .

وقد ثبت فى الرويات الأخرى تكلم غير هؤلاء ، فمن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم من حديث صهيب فى قصة أصحاب الأخدود المذكورة فى آخر الصحيح : « وهو أن امرأة جىء بها لتلقى فى النار ومعها صبى يرضع فتقاعست ، فقال لها : « يا أُمه اصبرى فإنك على الحقِّ » فإذا انضم هذا إلى الثلاثة صاروا أربعة .

وروى أحمد والبزار وابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس :

« لم يتكلم فى المهد إلا أربعة ، فذكر الأولين المذكورين فى حديث مسلم ولم يذكر الثالث ، وذكر شاهد يوسف والصبى الرضيع الذى قال لأمه وهى : ماشطة بنت فرعون لما أراد إلقاء أمه فى النار : اصبرى يا أمه فإنا على الحق » .

وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبى هريرة . فإذا ضممنا الاثنين الزائدين اللذين جاء بهما هذا الحديث صاروا ستة .

وذكر الضحاك فى تفسيره : « أن يحيى عليه السلام تكلم فى المهد » .
[أخرجه الثعلبى]

فإن كان هذا ثابتاً صاروا سبعة .

وذكر البغوى فى تفسيره : أن إبراهيم الخليل تكلم فى المهد أيضاً .

ومما ينبغى أن يعلم أنه اختلف فى شاهد يوسف ، فقيل كان صغيراً .

وهذا أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف ، وبه قال الحسن وسعيد ابن جبير .

وأخرج عن ابن عباس أيضاً ومجاهد أنه كان ذا لحية .

وعن قتادة والحسن أيضاً : كان حكيماً : فإذا استبعدنا شاهد يوسف الذى اختلفت الرواية فيه ، ويحيى وإبراهيم اللذين لم نتأكد من ثبوت روايتهما ، كان المتكلمون فى المهد خمسة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نوفق بين هذا وبين قوله ـ ﷺ ـ : « **لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة** » .

وقد سلك العلماء فى الجواب عن هذا مسالك .

فقال الإمام القرطبى :

فى هذا الحصر نظر ، ولعله ـ ﷺ ـ إنما أوحى إليه أولاً بثلاثة فأخبر بها ، ثم بعد ذلك أوحى إليه بما شاء الله تعالى مما أخبر به فى الأحاديث الأخرى .

وقال الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « يحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد ، أما كلام غيرهم من الأطفال ففى غير المهد » .

ولكن يعكر عليه أن فى رواية ابن قتيبة أن الصبى الذى طرحته أمه فى الأخدود كان ابن سبعة أشهر ، ومثله لا شك يكون فى المهد ، فما قاله النووى من أن الطفل الذى طرحته أمه فى الأخدود لم يكن فى المهد غير صحيح .

فإن قيل كلام هؤلاء الذين تكلموا فى المهد أكان بخلق العقل والتمييز الكاملين لهم ، أم بإجراء الكلام على ألسنتهم من غير تعقل له ؟

قلنا : قد أجاب على ذلك الإمام القرطبى فقال :

ثم كلام عيسى ـ عليه السلام ـ هو بأن الله ـ تعالى ـ خلق له فى المهد ما خلق للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فى حال كما لهم من العقل والفهم كما شهد القرآن ، وأما غيره فيحتمل أن الله تعالى خلق فيه عقلاً كما يخلقه فى الكبار ، ويحتمل أن الله ـ تعالى ـ أجرى ذلك الكلام ، يعنى على لسانه وهو لا يعقل ، كما خلقه فى الذراع والحصى مع بقائهما على جماديتهما .

وأما بقية قصة جريج فقد سبق شرحها ، إلاَّ أنَّ فى هذه الرواية التصريح بأن أمه ترددت عليه ثلاث مرات فى ثلاثة أيام ، وأنه كان فى كل مرة يُعرض عنها ويُقبل على صلاته ؛ وهذه هى الرواية المعتمد عليها لأنها زيادة من ثقة حافظ ، فهى مقبولة ، وسأعرض لشرح ما لم يذكر فى الرواية السابقة .

« وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها » .

الظاهر أن كان هنا تامة ، وجملة يتمثل بحسنها صفة ثانية لامرأة أو حال ، ويجوز أن تكون ناقصة وخبرها محذوف ، أى هناك ، والبغى الزانية ، قال فى المصباح :

وبغت المرأة تبغى بغاء بالكسر والمد فجُرت فهى بغى ، والجمع بَغَايَا ، وهو وصف مختص بالمرأة ، ولا يقال للرجل بغى . قاله الأزهرى .

ومعنى يتمثل بحسنها ، أى يضرب بها المثل لانفرادها به ، وفى ذكر هذه الأوصاف ما يدل على عفة جريج الفائقة ، فإن الفاجرة إذا كانت بارعة الجمال لا يسلم من فتنتها إلا من عصم الله من أمثال جريج وفى قبله يوسف الصديق عليه الصلاة والسَّلام .

« فصلَّى » : وفى رواية البخارى « فتوضأ وصلَّى » ففيه دلالة على أن الوضوء كان فى غير هذه الأمة الإسلامية ، وإنما اختصت بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

« وبينا صبى يرضع من أمه فَمرَّ رجل راكب على دَابَّة فارهة وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ » .

الفارهة : النشيطة الحادة القوية ، وقد فَرُهَتْ بضم الرَّاء فراهةً وفراهيةً .

والشارة : الهيئة . واللباس : أى صاحب هيئة ومنظر ولباس حسن يُتَعَجَّبُ مِنْهُ ويُشَارُ إليْه .

والمراد بذكر هذه الأوصاف بيان السبب الحامل للمرأة أن تدعو لصبيها أن يكون مثله ، إذ مثله مِّمنْ ترغب الأم أن يكون ابنها على مثاله .

وقوله : « وشارة حسنة » . أى وذو شارة حسنة ، فهو على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله ، فهو صفة لرجل على تقدير المضاف المحذوف معطوف على الصفة الأولى وهى راكب ويكون التقدير فمرَّ بها رجل راكب وذو شارة حسنة ، يوضح ذلك رواية البخارى ولفظها : « **اللّٰهم اجعل ابنى مثل هذا** » .

يعنى فى هيئته وحسنه وعزه الذى يدل عليه مظهره .

« **فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه** » .

ضمن أقبل معنى نظر أو التفت فعدى تعديته . فيكون ما بعده تفسيراً له أو تكون إلى بمعنى على .

فقال اللّٰهم لا تجعلنى مثله .

أخذت الأم بجمال ظاهر الراكب فتمنت أن يكون ابنها مثله ، ولكن الله ـ سبحانه ـ أطلع الصبى على حقيقة أمره ، وأن باطنه فيه الشر وإن كان فى ظاهره الخير ، فقال : اللّٰهم لا تجعلنى مثله ، يعنى فى تجبره وطغيانه ومخالفة ظاهره لباطنه .

ثم أقبل على ثديها يمص .

« قال : فكأنى انظر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة » .

قال : قال أبو هريرة راوى الحديث ، وقد جاء اسْمُهُ صريحاً فى رواية البخارى ففيها : « قال أبو هريرة كأنى انظر .. إلخ » .

وهو موصول بالإسناد المذكور ، وفيه المبالغة فى إيضاح الخبر بتمثيله بالفعل وبيان العلم بالعمل ، ونريد أن نوضح أن حكاية الفعل أو القول لا ضير فيها مادام يقصد بذلك الخير والمصلحة لا التهكم والسخرية والازدراء .

قال : « **ومُرو بجارِيَةٍ وهم يضربونها** » إلى قوله فى الحديث : « **اللّٰهم اجعلنى مثلها** » .

يعنى : اللهم اجعلنى سالماً من المعاصى كما هى سالمة ، وليس المراد مثلها فى النسبة إلى باطل يكون منه بريئاً ، فإن هذا مما لا يطلبه عاقل لنفسه[1] .

« **فهناك تراجعا الحديث** » .

أى أقبلت على الرضيع تحدثه وكانت أولاً تراه أهلاً للكلام ، فلما تكرر منه الكلام ، علمت أنه أهل له فسألته وراجعته واستفهمت منه عما أشكل عليها وغاب عنها مما أدركه هو على صغره ولم تدركه هى على كبرها ، فأجابها بما أزال حيرتها وكشف الغطاء عن بصيرتها ، ثم بين كيفية مراجعتها الحديث حيث قال : « **فقالت حَلْقَى مر رجل حسن الهيئة ... إلخ** » .

فالفاء تفسيرية وحلقى غير مصروف لأن ألفه للتأنيث ، وهى فى الرواية بفتح الحاء وسكون اللام وبالقصر بغير تنوين ، ويجوز فى اللغة التنوين ، وصوبه أبو عبيد ، لأن معناه الدعاء بالحلق ، كما يقال سقيا ورعيا ونحو ذلك من المصادر التى يدعى بها ، وهى كلمة جرت فى كلامهم مجرى المثل من غير إرادة أصل معناها ، وهو الدعاء عليه بمدلولها ، وأصل معناها حلق شعرها وهو زينة المرأة ، أو أصابها وجع فى حلقها أو حلق قومها بشؤمها ، أى أهلكهم ، ثم تنوسى معناها الأصلى ، وأصبحت تذكر فى الكلام من غير إرادة هذا المعنى الأصلى ، ومثل ذلك قولهم : قاتله الله ، وتربت يداه ونحو ذلك .

ولعل أم الغلام أرادت بهذه الكلمة أن يكف عن مراجعتها ، وغير معقول أن تكون أرادت الدعاء عليه بأصل معناها ، وأم هذا الصبى نظرت إلى الصورة الظاهرة فحسب ، ولم تُعِرْ **الباطن** اهتماماً فاستحسنت صورة الرجل المار وهيئته فدعت لابنها أن يكون مثله ، واستقبحت صورة الأمة وحالتها فدعت ألا يجعل الله ابنها كذلك « أى مثلهما » .

فأراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنبيهاً إلى ما يجب مراعاته من الأحوال الباطنة ، فأنطق ابنها الرضيع بالحقيقة المستورة عن كثير من الناس ، والتى لا يصل إلى إدراكها إلا من كان قلبه داعياً ، ونظره ثاقباً ، وضميرهُ حياً ، ووجدانه متيقظاً .

وفى هذا تعليم للناس ألا يجعلوا جل اهتمامهم بالظواهر ، بل عليهم أن يبحثوا عن البواطن ويقدروها حق قدرها .

---

(١) نعم .. هذا منطق العقلاء الفطناء لكن إن ابتلينا فعلينا أن نتحلى بالصبر والسكينة والحلم .

ما يؤخذ من هذا الحديث

١ ـ فيه دليل على أن أفضَل العبادات بِرُّ الوالدين ، يؤخذ ذلك من كون جريج ما شغله عن إجابة أمه إلا شغله بالعبادة ، ومع ذلك فقد قبل الله دعاء أمه عليه وفتن بهذه الفتنة .

٢ ـ يؤخذ منه أن الحبيب إن جرى منه أمر يرفق به صاحبه ولا يكون عقابه مثل غيره ، وذلك أن أم جريج لم تدع عليه إلا برؤية وجوه المومسات ، ولولا اللطف به فى الدعاء لدعت عليه بوقوعه فى الفاحشة أو سلب الإيمان أو القتل أو نحو ذلك .

٣ ـ إن الصادق فى معاملته مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ إن ابتلى يلطف الله به ويجعل عاقبته خَيْرا ، وإن الله يجيب المضطر إذا دعاه ، وأن من اتقى الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل له فرجاً ومخرجاً من الشدائد ، وصدق الله حين يقول : ﴿ **ومن يَّتقِ الله يجعل لَّه مَخرَجاً ويرزقه من حيث لا يحتسِب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إنَّ الله بَالِغُ أمْره قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدراً** ﴾ [سورة الطلاق الآيتان : ٢ ـ ٣] .

٤ ـ فيه دليل على أن النساء فى بنى إسرائيل كن يُصَدّقن فيما يدعينه علَى الرِّجال من الوَطْءِ ويلحق به الولد بغير بينة ، ولولا ذلك ما كان يحتاج فى تبرئته لكلام الطفل ، فإنه لو كان فى شريعتنا ولم تأت ببينة حُدَّت له ثمانين حد القرية ، ولم تصدق عليه ، وقد جاء عن بنى إسرائيل أن ذلك كان من شأنهم ، حتى إن المرأة الباغية منهم إذا حملت ادعت به على من شاءت ممن تعرف وتلحق به الولد ، وَلَعَلَّ ذلك من الآصار والأغلال التى كانت عليهم ، فخففها الله علينا دفعها عنا .

٥ ـ فيه دليل على أن خرق العادة يكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولغيرهم ، فقد جرى خرق العادة لعيسى ولجريج وللمرأة التى كلمت ولدها ، إلا أنها فى حق الأنبياء تسمى معجزة ، لكونها تقرن بالتحدى ودعوى النبوة ، وفى حق الأولياء كرامة .

قال النووى : وفيه إثبات كرامات الأولياء ، وهو مذهب أهل السُنة خلافاً للمعتزلة ، وإن كرامات الأولياء تكون باختيارهم وطلبهم ، وهذا هو الصحيح عند أصحابنا المتكلمين ، ومنهم من قال : لا تقع باختيارهم وطلبهم وفيه أن الكرامات تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها ، ومنعه بعضهم وادعى أنها تختص بمثل إجابة دعاء ونحوه ، وهذا غلط من قائله وإنكار للحس ، بل الصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشىء من العدم ونحوه .

٦ ـ فيه دليل على أن من آداب السنة إظهار أهل الخير وإن كانوا قد ماتوا ، والستر على أهل المخالفات ، يؤخذ ذلك من كونه ـ ﷺ ـ سمى العابد باسمه لتشهد فضيلته ، ولم يذكر اسم المرأة ستراً عليها ، وكذلك الراعى ، ويترتب على ذلك من الفقه أنك إذا علمت من أحد شراً أن تخبر عن ذلك الفعل ولا تسمى صاحبه ، وأن ذلك ليس بغيبة ، إلا أن يكون صاحب بدعة فيتعين عليك التشهير ، به لأن ذلك من باب النصح للمسلمين[1] .

٧ ـ فيه دليل على أن المؤمن عند المحن تكون الصلاة جنته ، يؤخذ ذلك من أنهم لما فعلوا به لم يجادلهم وتوضأ وأقبل يصلى ، فأنقذه الله من ورطته وقد قيل ! « **الصلاة كهف المؤمن** »[2] .

وفى الكتاب الكريم: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾ [سورة البقرة الآية: ٤٥].

وفى الحديث الشريف : كان النبى ـ ﷺ ـ إذا حزبه أمر[3] فزع إلى الصلاة .

٨ ـ فيه دليل على أن أبناء الدنيا وقوفهم مع الخيال الظاهر ، وأن أصحاب الاطلاع وقوفهم مع حقيقة الباطن ، يؤخذ ذلك من أن أم الصبى التى كانت ترضعه لما رأت صاحب الشارة ، تمنت أن يكون ابنها مثله ، ولما مَنَّ الله على الطفل بمعرفة الباطن استعاذ منه ، كما أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ عن قارون ، فقد اغتر بظاهره أناس مخدوعون ، وعلم أمره على حقيقة أهل العلم والبصيرة[4] .

---

(١) أى التحذير من إتيانه البدع .

(٢) بمعنى الحصن الحَامِى .

(٣) أحاطت به ضائقته وألمَّ به خطب .

(٤) لعل هذا يشير بعمق إلى فراشه أهل الإيمان وثباتهم على الطريق القويم بعيدًا عن الزيف .

قال تعالى : ﴿ **فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقَّاها إلا الصابرون** ﴾ [سورة القصص الآيتان : ٧٩ ـ ٨٠] .

٩ ـ فيه دليل على أن نفوس أهل الدنيا تعانى سوء الحال فيها ، وأن أهل الاطلاع والتحقيق لا يبالون بذلك إذا كانت السريرة حسنة ، يؤخذ ذلك من كون أم المولود لما رأت سوء حال الأَمَة استعاذت بالله من أن يكون ولدها مثلها ، ولما أُعطى الصبى الاطلاع على حسن حال باطنها تَمنَّى أنْ يَكُونَ مثلها .

١٠ ـ فيه دليل على أن البشرية طبعت على إيثار الأولاد على النفس بالخير ، يؤخذ ذلك من أن المرأة ما طلبت الخير إلا لابنها ، ولا طلبت دفع الشر إلا عنه ، ولم تبال بنفسها .

بـر الوالـدين

قال الإمام مسلم : حدثنى شيبان بن فروخ حدثنا أبو عوانة عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **رَغِمَ أَنْفُ ثم رَغِم أنْفُ ثم رَغِمَ أَنْفُ** » قيل من يارسول الله ؟ قال : « **من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة** » .

وفى رواية ثانية : « **رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه** » قيل من يارسول الله ؟ قال : « **من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة** » .

وفى رواية ثالثة : « **رغم أنفه** » ثلاثاً ثم ذكر مثله[1] .

شرح الحديث :

« **رغم أنفس .. إلخ** » .

---

(١) صحيح مسلم للنووى جـ١٦ صـ١٠٨ ـ ١٠٩ ط المطبعة المصرية بالأزهر الشريف .

زغم بفتح الغين وبكسرها أى ذل وَخَزِىَ .

قال أبو عمرو :« رغم » معناه : لصق بالرغام وهو تراب مختلط برمل .

قال ابن الأعرابى : وأما الرغم بالحركات الثلاث فى الراء فهو ما أصاب الأنف مما يؤذيه ، وإنما كانت بمعنى ذَلَّ لأنَّ مَنْ لَصَقَ أشرَفُ وَجْهِه الذى هو الأنف بالتراب الذى هو موطأ الأقدام فقد بلغ الْغَايَةَ فِى الذلة والخزى .

وقيل : معناه : صرعه الله لأنفه فأهلكه ، فالجملة دعاء عليه بالذلة أو الهلاك .

وإنما كرر النبى ـ ﷺ ـ ثلاثاً للتأكيد لينزجر من قصر فى بر أبويه ، وإنما أتى بـ « ثم » التى هى للترتيبْ مع التراخى الزمنى لإفادة أن من عق والديه فالذلة مضروبة عليه مع تجددها واستمرارها ، وإنما لم يفصح النبى ـ ﷺ ـ عمَّنْ رغم أنفه من أول الأمر كى يسألوا عن هذا الذى رغم أنفه ، فيجيبهم بما أجابهم به فيتمكن الكلام فى النفس فضل تمكن ، وهو أسلوب جزل فحل ، ولا كذلك لو قال من أول الأمر : « رغم أنف من أدرك أبويه ... إلخ » .

« قيل من يارسول الله » ؟

أى من الذى رغم أنفه ؟ فالخبر هنا محذوف .

« قال : من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما » .

الرواية بالنصب فيهما على البدلية ، فالأول بدل بعض من كل ، والثانى بدل من كل وهذا الوجه لا يخلو من اعتراض .

فالأَوْلَى أن يكون أحدهما بدل بعض من كل وكليهما مفعول لفعل محذوف أى أدرك كليهما .

وفى بعض النسخ روى بالرفع على الابتداء ، ويكون الخبر محذوفاً ، ويجوز أن يكون أحدهما خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير مدركه أحدهما أو كلاهما ، فإن من أدرك شيئاً فقد أدركه ذلك الشيء ، والضمير فى مدركه على هذا الوجه يعود على الولد ويجوز أن يكون أحدهما مرفوعاً بالظرف يعنى متعلقه المحذوف وكلاهما معطوف عليه ، لأن قوله عند الكبر فى موضع الحال ، والظرف إذا كان فى موضع الحال يرفع ما بعده ، والتقدير على هذا : من أدرك أبويه حالة كونهما مستقراً عند الكبر أحدهما أو كلاهما .

و (أو) للتقسيم ، أى أحدهما فيما إذا مات واحد منهما ، أو كلاهما إذا كانا حيين ، وقد دلت (أو) على أن بر أحد الوالدين عند عدم الآخر كافٍ لإدخال الإنى الجنة كبرهما .

وإنما قيد ذلك بقوله عند الكبر إن تضعف قوتهما ، ويقل إن لم ينعدم كسبهما ، فيكونان فى هذه الحالة أولى بالبر وأحقُّ بالعطف وجبر الخاطر منهما فى غيرها ، ففى ذكره استدرار لبر الأبناء بالوالدين ورحمتهم بهما بذكر أهم الدواعى إلى ذلك وهو الكِبَرَ كما أن فيه تذكيراللابن أن يلى من والديه فى الكبر ما كان يحتاج فى صغره أن يَلياه منه .

فإن قيل : ما الفرق بين قوله ـ ﷺ ـ: « عند الكبر » وبين قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما** ﴾[1] [سورة الإسراء الآية : ٢٣] .

قلنا : إن معنى (عندك الكبر) أن يكبراً وَيَعْجَزاَ ويَكُونَا كُلاًّ عليه ولا كافل لهما غيره ، فهما عندك وفى بيتك وكنفك ، فإلى من تكلهما ؟

وأما معنى عند الكبر أى فى حال حضوره ، ووقت حصوله ، أى يدركهما والحال أنهما عاجزان والضعف متمكن منهما ، وقد صاراً لحماً على وضم ، وقد أوجبت الآية على الأبناء إكرام الوالدين وتكريمهما بالإحسان إليهما قولاً ، وخففض الجناح بالذل فعلاً ، وطلب الرحمة لهما من الله ـ تعالى ـ، ولا شك أن التعبير القرآنى أفخم وأدل على إيجاب الإحسان إليهما والبر بهما وتعيين إنفاقه عليهما .

« فلم يدخل الجنة » الفاء للسببية ، أى يكونان سبباً فى عدم دخوله الجنة .

وفى الرواية الثانية : « **ثم لم يدخل الجنة** » .

قال الطيبى : ثم استبعادية يعنى ذل وخاب وهلك من أدرك تلك الفرصة المواتية التى هى موجبة للفوز بالجنة والتمتع بنعيمها المقيم ثم لم ينتهزها ويغتنمها ، ومثل هذا مما يستبعد إذ الأليق بالمؤمن العاقل أن يقتنص الفرصة لا أن يضيعها ويفرط فيها .

---

(١) بقية الآية : ﴿ **وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا** ﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ إرحمهما كما ربيانى صغيرًا .

فالتعبير بِثُمَّ فِى هٰذا المقام صادف المحز[1] .
والمراد بعدم دخوله الجنة ، دخوله النار ، لأنه ليس بعد الموت إلا جنة أو نار .
وإنما آثر النبى ـ ﷺ ـ هذا التعبير على (ثم دخل النار) لأن دخول الجنة هو المرغوب فيه المحبوب لكل مؤمن ، ومن ذا الذى لا يشتاق إليها ويرغب فيها ؟
وتفويت المرغوب المحبوب مما يحز فى النفس عدم حصوله ، فالأسلوب الذى جاء عليه الحديث فيه ترغيب لتحصيل المحبوب ، وفيه تخويف من النار بطريق اللزوم ولا كذلك لو قال : فدخل النار أو ثم دخل النار .

كلمة فى بر الوالدين

قد دلت هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث المتكاثرة على وجوب بر الوالدين والإحسان إليهما وطاعتهما فيما أمرا به ، وإنما تجب طاعتهما ما لم تكن معصية ، وقيل إن أمَرا بمباح صار مندوباً ، وإن أمراً بمندوب تأكد المندوب ، والصحيح الأول وهو الوجوب ـ لأن الله تعالى ـ قد قرن طاعتهما بتوحيده فى غير ما آية ، وذلك لأنه سبحانه هو الموجد الأول ، والوالدان هما السببان المباشران وبواسطتهما أوصل الله إلى الإنسان كل خير وبر .
وقد وضح الله لنا المنهج الصحيح لبر الوالدين فقال ـ عز شأنه ـ: ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلاَّ إيَّاه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً** ﴾ .
[سورة الإسراء الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤]
فقد بالغ الله فى التوصية بالوالدين ، ولو لم يكن إلا أنه شفع الإحسان إليهما بتوحيده ونظمهما فى سلك واحد لكفى ؛ فما بالك وقد جعل رضاهما من رضاه ، وغضبهما من غضبه .

---

(١) حزَّ الشى قطعه وشقَّه .. المحز هنا خط القطع .. والمعنى أن التعبير « المحز » مصيب ومؤد للمقصود .

روى ابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط الترمذى ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **رضا الله تعالى فى رضا الوالدين وسخط الله تعالى من سخط الوالدين** »[1] .

بل جعل الله العمل فى مرضاتهما وخدمتهما والقيام بشئونهما مقدماً على الجهاد ، فقد جاء رجل يستأذن النبى ـ ﷺ ـ فى الجهاد . فقال له : « **أحيٌّ وَالِدك** » ؟

قال : نعم . قال : « **ففيهما فجاهد** »[2] .

وجاء عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال : « **لو علم الله تعالى شيئاً أدنى من الأف لنهى عنه ، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ، ما شاءَ أنْ يعمل فلن يدخل النار** »[3] .

ورأى ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه على رقبته فقال : يا ابن عمر أترانى جزيتها ؟

قال : ولا بطلقة واحدة ، ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل كثيراً .

وروى مسلم وغيره : « **لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه** »[4] .

وقد سما الإسلام فى باب البر بالوالدين فجعل الولد وما يملك لأبيه ، ومن باب أولى لأمه .

ومما يستطرف ذكره ما رواه البيهقى فى الدلائل والطبرانى فى الأوسط والصغير بسند فيه من لا يعرف عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : « جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : إن أبى أخذ مالى » .

فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **فاذهب فائتنى بأبيك** » . فنزل جبريل على النبى ـ ﷺ ـ فقال : « **إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول إذا جاءك الشيخ فسله عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه** » .

فلما جاء الشيخ قال له النبى ـ ﷺ ـ: « **ما بال ابنك يشكوك ، أتريد أن تأخذ ماله ؟** » .

قال : سله يارسول الله هل أنفقته إلا على عماته وخالاته أو على نفسى .

---

(١) أخرجه الترمذى مرفوعًا وموقوفًا وصحح وقفه تيسير الوصول إلى صحيح الأصول جـ١ صـ٤٧ وينظر القرطبى جـ١٠ صـ٢٤٥ ط دار الكتب .

(٢) متفق عليه اللؤلؤ والمرجاء ط الحلبى القاهرة جـ٣ صـ١٨٥ .

(٣) القرطبى جـ١٠ صـ٢٤٣ دار الكتب المصرية وأورد (أردًا) بدلا من (أدنى) من الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ..

(٤) مسلم للنووى جـ١٠ صـ١٥٣ .

فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **إيه ، دعنا من هذا ، أخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك** » .

فقال الشيخ : والله يارسول الله مايزال الله تعالى يزيدنا بك يقيناً ، لقد قلت فى نفسى شيئاً ما سمعته أذناى .

فقال : « **قل وأنا أسمع** » .

فقال : قلت :

غذوتك مولوداً ومُنْتُك يافعاً
تُعلّ بما أجنى عليك وتنهَلُ

إذا ليلة ضافتك بالسُّقْم لَمْ أبِتْ
بسقمك إلا ساهراً أتململُ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى
طرقت بى دونى فعينى تَهْمُلُ

تخاف الردى نفسى عليك وإنها
لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التى
إليها مدى ما كنت فيك أؤمّل

جعلْتَ جَزَائى غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم تَرْعَ حقَّ أبوتى
فعلت كما الجار المجاور[1] يفعل

فأوليتنى حق الجوار ولم تكن
علىّ بمال دون مالك تبخل

تراه مُعداً للخلاف كأنه
برد على أهل الصواب موكل

---

(١) القصيدة عدا البيت الأخر القرطبى جـ١٠ صـ٢٤٦ ط دار الكتب المصرية والمصاقب تبدل المجاورو وقد ذكر القرطبى أن الاسناد منفصل عن جابر بن عبد الله .

قال : فحينئذ أخذ النبى ـ ﷺ ـ بتلابي ابنه وقال : « **أنت ومالك لأبيك** » .

ولا يختص البر بالحياة ، بل يكون بعد الممات أيضاً .

فقد روى ابن ماجة عن أبى أسيد وكان بدريا : أن النبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟

قال : « **نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما** »[1] .

رواه ابن حبان فى صحيحه بزيادة :

قال الرجل : ما أكثر هذا يارسول الله وأطيبه ؟

قال : « **ما عُمل به** » .

المرأة هى الزوجة

بعد أن تحدثنا عن المرأة الأم ، يمتد بنا الحديث عن المرأة الزوجة ، وفى هذا الحديث مراتب لا تُحصى ومراقٍ لا تُستقصى .

ونحن إذا ما تحدثنا عن المرأة الزوجة ، فإنما نتحدث عن الخلية الأولى للمجتمع ، لأن الزوجة عضو فى خلية الأسرة ، والأسرة إذا صلحت صلح المجتمع كله ، وإذا فسدت فهذا هو الداء العضال ، والأمر الوبال على الأجيال المتعاقبة ، ولذلك فعندما ألقيت نظرة فاحصة على عناية الإسلام ببناء الأسرة ، وجدت قلبى يسجد أمام عظمة الله الحكيم الخبير ، ووجدت قلمى يقف عاجزاً أمام وصف ذلك البناء الشامخ فى علوه وعليائه ، المترامى فى أطرافه ، المتين فى أساسه ، المحكم فى هندسته ودقة صُنعه .

فقد وضع الشرع الحكيم أساساً عريقاً لذلك البناء فى مراسم الخطبة وعقد الزواج والزفاف ، ورسم له من الخطوط العريضة فى المباشرة الزوجية ما يضفى

---

(١) القرطبى جـ١٠ صـ٢٤١ ط دار الكتب المصرية .

عليه البهجة والسعادة والطهر والعفاف والسمو والصفاء والنقاء والرحمة والسكينة والود .

فإذا ما أثمرت تلك العلاقة ثمرتها المرجوة ، فهناك من التشريعات والقوانين الإلهية ما يحافظ على تلك الثمرة ، ويضمن لها الجو والمناخ الصالحين الذى تنمو وتترعرع فيهما كأروع ما يكون الإنسان الذى يستحق الخلافة عن الله فى الأرض .

لقد جعل الإسلام من الأسرة سفينةً تسير ، باسم الله مجريها ومرساها ، تجوب بحار الحياة المتلاطمة الأمواج ، وهى رافعة شراع الإيمان الذى يحميها من الغرق ، ويوجهها إلى الغاية السامية حاملة الأمانة ، ومؤدية الرسالة حتى تخرج من ضيق الدنيا وجورها إلى سعة الآخرة وعدلها مع فضلها .

فلنرهف السمع جيداً لنعى[1] كيف سعى الإسلام إلى بناء الأسرة على أساس متين ، وبالتالى بناء المجتمع الإسلامى بما يحقق له معانى العزة والرفعة والاستقرار والطمأنينة ، ولنكن على حذر منه تلك البدع التى دخلت على مجتمعاتنا حيث كان الهدف الأول دائماً لكل أعداء الحق هو هدم قواعد بناء الأسرة المسلمة لأنهم بدراستهم لمنهج الإسلام السامى عرفوا أن مكمن القوة فى تلك القواعد الراسخة ، فأعملوا فيها معاول الهدم لتحقيق بغيتهم فى القضاء على ديننا الحنيف .

فاعتصموا أيها المسلمون بحبل الله المتين ، وابنوا أسركم على هدى من القرآن وسُنة الرسوله الحبيب فإنه من استمسك بالله فقد هدى إلى صراط الحميد ونجا من كيد الشيطان وأعداء الدين ، ولا أملك إلا أن أردد قول الحق العظيم : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ [سورة قٓ الآية : ٣٧] .

الدعوة إلى بناء الأسرة

من نعم الله تعالى على عباده أنه شرع الزواج ليكون سنة محكمة من سنن المرسلين ، من لدن آدم إلى أن يرث الأرض ومن عليها .

---

(١) لندرك .

قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ [سورة الرعد الآية : ٣٨] .

ولكى يعمر البشر هذه الأرض كما قال تعالى : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ [سورة هود الآية : ٦١] .

فلا بد أن يكون هناك سنن وشرائع تبين للناس كيف يقيمون الحياة الزوجية فى سلوك مستقيم وبناء متين ، ومن هنا فإن الإسلام نظم العلاقات ، وحدَّ الحدود وبيّن الحقوق ، ووضح الواجبات لتسير سفينة الحياة فى جو معتدل ، وتعيش الأسرة حياة راضية ، لا تسمع فيه لاغية(١) .

والناظر فى كتاب الله يجد آية الزواج قد جاءت فتوسطت آيات دالة على وحدانية الله وآلائه على عباده .

قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .
[سورة الروم الآية : ٢١]

إذا نظرت إلى وسياقها ولاحقها من الآيات علمت ما للزواج من صلة أكيدة بالكون الذى خلقه الله تعالى من العرش إلى الفرش ، وكأنه (أى الزواج) قد صار سنة كونية محكمة البنيان وطيدة الأركان .

فسباق(٢) هذه الآية يقول : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ [سورة الروم الآية : ٢٠] .

ولاحقها(٣) يقول : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ [سورة الروم الآية : ٢٢] .

فالآية بين السباق واللحاق قد تبوأت مكاناً عليًّا ، وذلك ما دل عليه السياق ، ولقد سمى الله ـ تعالى ـ عقد الزواج (ميثاقاً غليظاً) .

---

(١) نص الآية (١١) من سورة الغاشية .
(٢،٣)ما قبلها وما بعدها .

قال تعالى : ﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٢١] .

كما سمى الميثاق الذى أخذه من الأنبياء ميثاقاً غليظاً .

قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [سورة الأحزاب الآية : ٧] .

وفى القرآن الكريم من الآيات ما يدل دلالة قاطعة على أن الزواج نعمة عظمى امتنّ الله بها على عباده ، من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ **يـٰأيُّها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ [سورة النساء الآية : ١] .

﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً** ﴾ [سورة الفرقان الآية : ٥٤] .

﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾ [سورة النحل الآية : ٧٢] .

وليس الزواج مقصوراً على عالم البشر إنما هو سنة مطردة فى الكون كله .

قال تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ [سورة الذاريات الآية : ٤٩] .

وقال جلّ شأنه : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ [سورة يسٓ الآية : ٣٦] .

وقد أعطى الله تعالى كل شىء خلقه ثم هدى[١] : ﴿ **فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ [سورة الشورى الآية : ١١] .

وقال : ﴿ **يـٰأيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا** ﴾ [سورة الحجرات الآية : ١٣] .

---

(١) مضمون الآية رقم (٥٠) من سورة طه .

وقال : ﴿ **يـٰأيُّها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾ [سورة النساء الآية : ١] .

وقد حث الصادق المعصوم على الزواج ورغب فيه ، وجاءت أحاديثه الشريفة مستفيضة ، فيها من النور النبوى ما يضيء الطريق لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً .

من ذلك قوله ـ ﷺ ـ:

١ ـ عن عبد الله بن مسعود عن علقمة ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، (فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** »[1] .

[رواه البخارى ومسلم]

٢ ـ روى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر** » .

[رواه ابن ماجه]

٣ ـ وعن أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **أربع من سنن المرسلين : الحناء والتعطر والسواك والنكاح** » .

[رواه الترمذى وقال بعض الرواة والحياء بالياء وقال حديث حسن غريب]

٤ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة** » .

[رواه مسلم والنسائى وابن ماجة]

٥ ـ وعنه ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **الدنيا متاع ، ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة ، مسكين مسكين رجل لا امرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها** »[2] .

[أخرجه رزين]

٦ ـ وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه كان يقول : « **ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله ـ عز وجل ـ خير له من زوجة صالحة ، إن**

---

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ٨٩ ط الحلبى ومسلم للنووى جـ٩ صـ١٧٢ ، وفتح البارى ط السلفية جـ٩ صـ١٠٦ .

(٢) تيسير الهول لجامع الأصول جـ٤ صـ٢٥٨ .

أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله » ونصحته : حفظته .

[رواه ابن ماجه]

٧ ــ وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن النبى ــ ﷺ ــ قال : **« أربع من أعطيهن فقد أُعطى خَيْرَ الدنيا والآخرة : قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغه حوباً فى نفسها وماله »** .

[رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بإسناد جيد والحوباب : الإثم]

٨ ــ وعن ثوبان ــ رضى الله عنه ــ قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ [سورة التوبة الآية : ٣٤] .

قال : كنا مع رسول الله ــ ﷺ ــ فى بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه : أنزلت فى الذهب والفضة ، لو علمنا أى المال خير فنتخذه ! فقال : **« أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه »** .

٩ ــ وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن جده ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : **« من سعادة ابن آدم ثلاثة ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة : من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح . ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة : المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء »** .

[رواه أحمد بإسناد صحيح]

١٠ ــ وعن محمد بن سعيد يعنى ابن أبى وقاص عن أبيه أيضاً ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : **« ثلاثة من السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك والدار تكون واسعة كثيرة المرافق »** .

وثلاثة من الشقاء : المراة تراها فتوذك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها عن نفسها ومالك والدابة تكون قطوفاً فإن ضربتها تعبدك وإن تركتها تلحقك بأصحابك والدار ضيقة قليلة المرافق [رواه الحاكم وحسنه الألبانى جـ ٢ طرحه من المنتقى للترغيب والترهيب]

١١ ــ وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول ــ ﷺ ــ : **« من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباق »** .

[رواه الطبرانى وقال الحاكم صحيح الإسناد فى الأوسط]

١٢ ــ وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ: **« ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف »** .

[رواه الترمذى واللقط له وقال حسن صحيح والحاكم قال صحيح على شرط مسلم]

١٣ ــ وعن أبى نجيح ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال :

« من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى » .

[رواه الطبرانى بإسناد حسن والبيهقى]

١٤ ــ وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ــ ﷺ ــ يسألون عن عبادة النبى ــ ﷺ ــ : فلما أُخبروا كأنهم تَقَالّوهَا فقالوا : وأين نحن من النبى ــ ﷺ ــ؟ فقد غفر الله لـه ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً .

وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً .

وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله ــ ﷺ ــ إليهم فقال : **« أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لَكِنِّى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى »**[1] .

[رواه البخارى ولفظ له مسلم وغيرهما]

١٥ ــ وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ: **« تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها ومالها وخُلقها ودينها ، فعليك بذات الدين والخُلق تربت يمينك »**[2] .

[رواه أحمد بإسناد صحيح وابن حبان]

---

(١) فتح البارى جـ٩ صـ١٠٤ ط السلفية القاهرة .

(٢) فتح البارى جـ٩ صـ١٣٢ ط السلفية القاهرة .

١٦ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : **« تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدِّين تربت يداك »** [متفق عليه]

١٧ ـ وروى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ: **« من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن تغض بصره وتحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه »** [رواه الطبرانى]

١٨ ـ وعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **« لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل »**[1] **[رواه ابن ماجه]**

(وخرماء) أى متقطعة الأطراف من خرمت الشيء خُرماً أى ثقبته .

١٩ ـ وعن معقل بن يسار ـ رضى الله عنه ـ قال : « جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله : إنى أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له : مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له : تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم » .

[أخرجه أحمد والطبرانى فى الأوسط والنسائى والبيهقى السنن الكبرى جـ٢ صـ٨١]

وجل جلال الله إذ يقول مُرّغباً فى النكاح : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم الصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم** ﴾ [سورة النور الآية : ٣٢] .

وهذا أمر .

﴿ **فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ [سورة النساء الآية : ٣] .

وهذا ترغيب مع الدعوة إلى العدل .

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى جـ٧ صـ٨٠ التزوج بذات الدين ، وتكلم المنهل العذب الموزود (فتح الملك المعبود) للشيخ ابن محمود خطاب جـ٣ صـ١٦٨ .

﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٣٢] .

وهذا منع عن العضل ونهى عنه .

وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم : **﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾** [سورة الرعد الآية : ٣٨] .

فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل : **﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾** .

[سورة الفرقان الآية : ٧٤]

فسبحان من مدح أولياءه بسؤالهم إيَّاه ذلك فى دعائهم .

سمات الزوجة الصالحة فى الشرع الحكيم

(١) الديـــن :

إن أهم ما عنى به الإسلام لاختيار الزوجة التى تعين على نوائب الدهر وتكون سكناً وذخراً للرجل وخير متاع ينبغى التطلع إليه والحرص عليه هو دينها قال ـ ﷺ ـ: « **تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك** »[1] [رواه البخارى]

معنى تربت يداك : كلمة تفيد الحث والتحريض ، وقيل الدعاء له بكثرة المال والدعاء عليه بالفقر ؟

وصار المعنى : اظفر بذات الدين ولا تلتفت إلى المال وغيره أكثر الله مالك[2] .

وروى الطبرانى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ،**

---

(١) فتح البارى جـ٩ صـ١٣٢ ، صحيح مسلم للنووى جـ١٠ صـ٥١ ، زاد المسلم جـ١ صـ١٦٤ واللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ١٠٧ .

(٢) منتقى الترغيب والترهيب جـ٢ صـ٥٥٢ ط دار الوفاء .

ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه »[1] .

وقال صلوات ربى وسلامة عليه : **« لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ،ولا تزوجوهن لِمَا لِهِنّ فعسى ما لهن أن يطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدّين ، ولأمة خرماء ذات دين أفضل »**[2] .

وحذَّر الرسول الحبيب من المرأة الجميلة التى لا يحوط جمالها هذا سياج الإيمان ، فقال ـ ﷺ ـ: **« إيَّاكمَ وخضرَاء الدّمَنْ !! قيل يارسول الله وما خضراء الدِّمن ؟ قال : المرأةُ الحسنَاءُ في المَنْبت السُّوءِ »** .

فلماذا شرع[3] الدين فى المقام الأول لاختيار الزوجة ؟

لأن الدين هو الحصن المنيع والسراج المنير لظلمات الحياة ، وهو حبل الله المتين الذى ينجو به المرء من مكايد الكائدين ، وألسنة الحاقدين ، وعيون الحاسدين ، وهو المحك الأساسى لتقييم الناس يوم الدين ، قال ـ ﷺ ـ: **« إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »**[4] .

ونظراً لأن الإسلام هو دين الفطرة السوية ، والمصلحة الاجتماعية ، فقد وضع عدة معايير أخرى إضافية لاختيار الزوجة لتحقيق الهدف الأسمى والسعادة القصوى من الزواج من خلال تلك المعايير .

(٢) الأصل والشرف :

وذلك بأن تكون الزوجة من أسرة عريقة عرفت بالصلاح والخلق وأصالة الشرف وأرومة الأصل ، فالناس معادن يتفاوتون فيما بينهم وضاعة وشرفاً ويتفاضلون فساداً وصلاحاً . قال ـ ﷺ ـ : **« الناس معادن فى الخير والشر خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »**[5] .

---

(١) سبق تخريجه صـ٦٩ .

(٢) سبق تخريجه صـ٧٠ .

(٣) اختير .

(٤) رواه مسلم .

(٥) متفق عليه .

وروى ابن ماجه عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **تخيروا لنطفكم (فإن العرق دساس)** »[1] .

وروى ابن عدى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعاً : « **تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن** » .

وفى رواية : « **اطلبوا مواضع الأكفاء لنطفكم فإن الرجل ربما أشبه أخواله** » .

وروى ابن ماجه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعاً : « **تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وإنكحوا إليهم** »[2] .

وروى ابن عدى فى الكامل مرفوعاً : « **تزوجوا فى الحجر الصالح فإن العرق دساس** » .

إن أصالة المرأة وبيئتها الكريمة تجعلها بعيدة عن الانحرافات النفسية ، فهى ترضعهم ألبان المكارم والفضائل ، ويكتسبون منها بشكل فطرى خصال الخير ومكارم الأخلاق ، خطب رسول الله ـ ﷺ ـ (أم هانىء) فاعتذرت إليه بأنها صاحبة أولاد ، فقال : « **خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولدٍ فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده** »[3] .

وانطلاقاً من هذا المبدأ أوصى عثمان بن أبى العاص الثقفى أولاده فى اختيار الزوجة فقال لهم : « **يَابَنِىَّ : الناكح معترس ، فلينظر امرؤ حيث يضع عرسه ، والعرق السوء قلما ينجب ، فتخيروا وَلَوْ بَعْدَ حِين** » .

وتحقيقاً لهذا الهدى النبوى أجاب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنها ـ عن سؤال لأحد الأبناء لما سأل ما حق الولد على أبيه بقوله : « **أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمهُ ويعلمه القرآن** » .

فإذا ما تحقق هذان المعياران الأصيلان ، فهناك أيضاً معايير أخرى ، منها :

---

(١) ما بين المعلومين بدله عند ابن ماجة والحاكم والبيهقى (وأنكحوا الاكفاء) .

(٢) وانكحوا اليهم ، فتح الملك المعبود بتكلم المنهج العذب المورود جـ٣ صـ١٧٢ .

(٣) فتح البارى جـ٩ صـ١٢٥ .

(٣) الجمـال :

لم يسقط الإسلام الجمال من حسابه ، لأنَّ النفس البشرية جبلت على عِشْقِ الجمال وهوايته ، وهى تتوق إليه لتحقيق السكن النفسى والارتواء العاطفى ، ففى الحديث الصحيح : « **إن الله جميل يحب الجمال** »[1] .

وقال ـ ﷺ ـ: « **خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها برَّتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك** »[2]

[رواه النسائى]

وخطب المغيرة بن شعبة امرأة فأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له : « **اذهب فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما** »[3] .

أى تدوم بينكما المودة والعشرة .

ونصح الرسول رجلاً خطب امرأة من الأنصار فقال له : « **أنظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً** » [رواه مسلم والنسائى] .

وكان جابر بن عبد الله يختبىء لمن يريد التزوج بها ليتمكن من رؤيتها والنظر إلى ما يدعوه إلى الاقتران بها ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يرسل بعض النسوة ليتعرفن بعض ما يخفى من العيوب فيقول لها : « **شمى فمها شمى إبطيها ، انظرى إلى عرقوبيها** » .

(٤) تفضيل المرأة البكر :

يستحسن أن تكون الزوجة بكراً ، فإن البكر ساذجة لم يسبق لها عهد بالرجال ، فيكون التزوج بها أدعى إلى تقوية عقدة النكاح ويكون حبها لزوجها ألصق بقلبها لكون البكر مجبولة على الأنس والألفة بأول إنسان تكون فى عصمته

---

(١) رواه مسلم والترمذى والحاكم منتقى الترغيب والترهيب ط دار المعارف جـ٢ صـ٢٥٨ .

(٢) فتح الملك لمعبود جـ٣ صـ١٦٨ من حديث إلى أمانه مع كاف المخاطبة .

(٣) يسير الوصول جامع الأصول جـ٤ صـ٥٥٩ .

وتلتقى معه وتتعرف عليه ، بعكس المرأة الثيب فقد لا تجد فى الزوج الثانى الألفة التامة والمحبة المتبادلة والتعلق القلبى الصادق لمقارنتها بين أخلاق الزوج الأول ومعاملة الثانى لها .

وهناك دلائل على هذا التفضيل من الهدى النبوى : لما تزوج جابر بن عبد الله ثيباً قال له رسول الله ـ ﷺ ـ: « **أهلاً بكراً تلاعبها وتلاعبك** ؟ »[1] .

فأخبر جابرُ الرسُولَ ـ ﷺ ـ بأن أباه قد ترك بنات صغاراً وهن فى حاجة إلى رعاية امرأة تقوم على شئونهم ، وأن الثيب أقدر على هذه الرعاية من البكر التى لم تدرب على تدبير شئونالمنزل .

وألمح ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الحكمة فى تفضيل الزواج بالبكر فقال ـ صلوات ربى وسلامة ـ عليه : « **عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً ، وأنتق أرحاماً ، وأقل خبّاً ، وأرضى باليسير** »[2] [رواه أحمد] .

والمقصود بعذوبة الأفواه : طيب الكلام .

ونتق الأرحام : كثرة الأولاد .

أقل خبّاً : أقل مكراً وخديعة وحواربه .

وقد وضحت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كل هذه المعانى عندما قالت للرسول ـ ﷺ ـ : فيما رواه البخارى : يارسول الله أرأيت لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أكل منها وشجرة لم يؤكل منها ، فى أى منها كنت ترتع بعيرك ؟

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « **فى التى لم يُرتع فيها** » . قالت ـ رضى الله عنها ـ : « **فأنا هى** » ، وتقصد بذلك بيان فضلها على باقى الزوجات باعتبار أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يتزوج بكراً غيرها ـ رضى الله عنها ـ.

(٥) تفضيل الزواج بالمرأة الولود :

لما كان الغرض الأسمى من الزواج هو الإنجاب ، فينبغى أن تكون الزوجة منجبة ، وتعرف بسلامة جسمها والنظر فى حال أمها وحال أخواتها المتزوجات

---

(١) رواه البخارى ومسلم وعند البخارى جارية ٢ بدلا من (بكرًا) .

(٢) المغنى لابن قدامة ط مكتبة القاهرة جـ٧ صـ١٠٨ .

وخالاتها وعماتها ، فإن كن من الصنف الولود فالأرجح أن تكون مثلهن فى الإنجاب ، وهذا ضرورى لمضاعفة أعداد الأمة المحمدية التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

وما ذاك إلا من الهدى النبوى وذلك حين جاءه رجل يقول له : يا رسول الله إنى أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال ، إلا أنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **« تزوجوا الولود والودود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة »**[1] .

(٦) تفضيل الاغتراب فى الزواج :

أى الابتعاد قدر الإمكان عن النساء ذوات النسب والقرابة حرصاً على نجابة الولد ، وضماناً لسلامة الذرية من الأمراض الوراثية ، وتوسيعاً لدائرة التعارف الأسرية ، وتوطيداً للروابط الاجتماعية ، ولذلك حذر النبى ـ ﷺ ـ من الزواج بذوات النسب والقرابة فقال ـ صلوات ربى وسلامه عليه ـ: **« لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاوياً »** .

أى نحيفاً ضعيف الجسم بليد الذكاء .

ذلك أن ولد الأجنبية أنجب .. ولهذا يقال : **« اغتربوا لا تضووا »** بمعنى أنكحوا الغرائب كيلا تعضف أولادكم[2] .

وقد أثبت علم الوراثة بعد أربعة عشر قرناً معجزة الرسول ـ ﷺ ـ وإخباراته الصادقة حينما أثبت أن الزواج بالقرابة يجعل النسل ضعيفاً ويورث الأولاد صفات خِلْقِيَّة ذميمة[3] .

* * *

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) المغنى لابن قدامة جـ٧ صـ١٠٩ ط مكتبة القاهرة .. ولم يعزه للرسول عليه الصلاة والسلام .

(٣) بداهة مع الإعالها واليقين بخضوع الحقائق العلمية للحاقئق الدينية .

سمات الزوج الصالح في الشرع الحكيم

إن اختيار الزوج الصالح ضرورى للغاية لإرساء أسس الحياة الزوجية على دعائم متينة من الأمن والثبات على المبدأ ، وتحقيق المستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى اللائق للأسرة ، والاحتياط فى حق المرأة من الأهمية بمكان كما قال الإمام الغزالى فى الإحياء ، لأنها رقيقة[1] بالنكاح لا مخلص لها ، والزوج قادر على الطلاق بكل حال . قالت السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ: « **النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته** »[2] .

فيجب على ولى الأمر أن يختار لها رجلاً ذا دين وذا خُلُق يفهم الإسلام فهماً حقيقياً ، ويطبقه تطبيقاً عملياً سلوكياً بكل فضائله السامية وآدابه الرفيعة .

روى الترمذى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض** »[3] .

وأى فتنة تكون أعظم على المرأة المؤمنة من أن تقع تحت يد فاسق تشعر معه تحت سقف الزوجية بالاغتراب ، والله جعل الزواج سكناً ومودة ورحمة ، وأى فتنة تكون أعظم من الزواج من رجل لا يعرف الله ، ويسير بالمرأة إلى طريق الهاوية من سفور واختلاط وعدم مراعاة قواعد الفضيلة .

وأى فتنة وفساد أعظم من أن يتربى الأولاد على الإنحراف والإباحية والفساد والمنكر .

---

(١) نسبة إلى الرِّق .

(٢) رواه فى الاحياء للغزالى موقوفا على عائشة واسماء ابنتى الصديق جـ٢ صـ٥٣ ط الحلبى .

(٣) فتح المالك المعبود تكلمة المنهل العدب المورود ونشنج أمن خطاب جـ٣ صـ٢٧٤ .

وصدقت ياسيدى يارسول الله عندما قلت : « **من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها** »[1] [وسنده صحيح] .

فاتقوا الله أيها الرجال فى بناتكن ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا فهى متاع قليل والآخرة خير وأبقى ، والرجل الصالح التقى المؤمن يرتقى ببناته إلى مدارج الْعُلَى ، أما الفاسق فهو يهوى بهن إلى الهاوية وما أدراكم ماهية نار حامية .

قال ابن تيمية : « **ومن كان مصراً على الفسوق لا ينبغى أن يُزوَّجَ** »[2] .

وقال رجل للحسن بن على : إن لى بنتاً فمن ترى أن أزوجها له ؟

قال : زوّجها ممن يتقى اللهُ فإن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها .

حقاً ما أحسن الرجل التقى ، فهو شخصية غنية بمكارم الأخلاق ، محوطاً بعناية الله وعونه ، كما قال ــ صلوات ربى وسلامه عليه ــ : « **ثلاثة كلهم حق على الله ــ عز وجل عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء** » [السنن الكبرى للبيهقى جـ١ صـ٥٣٧ . جـ١٠] .

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن التقوى هى فقط المعيار الوحيد فى اختيار الرجل ، بل هناك عدة معايير أخرى يشترك فيها مع المرأة مما سبق ذكره بشأنها :

الاختيار على أساس الأصل والشرف والاغتراب فى الزواج ، ولكن المعيار الذى ينفرد به الرجل عن المرأة هو :

القدرة على القيام بأعباء المعيشة :

لأن الرجل هو رب الأسرة والمتصرف فى أمرها ، وله القوامة عليها ، ولن يكون ذلك إلا بقدرته على الإنفاق .

قال ــ تعالى ــ فى كتابه الكريم : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ [سورة النساء الآية : ٣٤] .

---

(١) يقول صاحب فتح الملك المعبود جـ٣ صـ٢٧٤ : ولأن الفاسق مرذول مردود الشهادة والرواية غير مأمون على القص والمال سلوب الولاية ناقص عند الله وعند خلقه ولا يجوز أن يكون كفأً لعفيفة ، إحياء علوم الدين جـ٢ صـ٥٣ ط الحلبى .

قال ـ ﷺ ـ : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** » أى وقاية [متفق عليه] .

والباءة مقصود بها ما يتطلبه الزواج من نفقات والتزامات المعيشة .

وهذا أفضل للرجل أن يكون هو صاحب الطول فى الإنفاق ، فلا يطمع فى الزواج من غنية تتفق عليه وتذله بما لها ، قال الإمام الغزالى فى كتابه « وإحياء علوم الدين » :

(قال بعضهم) : من تزوَّج غنية كان له منها خمس خصال : مغالاة الصداق وتسويف الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر على ذهاب مالها .

(وقال بعضهم) : ينبغى أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته : بالسن والطول والمال والحسب ، وأن تكون المرأة فوق الرجل بأربع : الجمال والأدب والخلق والورع .

تلك هو قواعد البناء للأسرة المسلمة ، وهى لا شك قواعد وطيدة الأركان ، وقد أحاط الإسلام هذه القواعد بسياج منيع يسمى التكافؤ ، فلابد أن يكون ثمة تقارب بين الزوجه والزوجة من حيث السن والمركز الاجتماعى والمستوى الثقافى والاقتصادى ، فإن التقارب فى هذه النواحى مما يعين على دوام العشرة وبقاء الألفة ، ولا أدلّ على ذلك من موقف سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ من ابنته السيدة فاطمة الزهراء . فقد خطبها أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فقال : « **إنها صغيرة** » .

فلما خطبها علىّ زوّجها إياه .

وإذا أراد ولى أمر فتاة أن يرجح معياراً من المعايير ، فليكن هو معيار الخُلق والدين أسوة بسيد الخلق أجمعين ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين .

قال ـ ﷺ ـ: « **إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه** » « **والدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة** » . كما قال ـ ﷺ ـ : « **أقلهن مهراً أعظمهن بركة فمن يمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، ومن شؤم المرأة ثقل مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها** » .

فعل الباحثين عن السعادة أن يعلموا أن السعادة حقيقة ثابتة لا ترتكز على حياة أو مال أو سلطان ، إنما هى صرح شامخ أساسه العمل الصالح والإيمان الراسخ والقلب السليم ، وتلك هى أركان البناء الروحى للزواج ، فإن كان القادمون على الزواج يظنون أن قواعد البناء مادية ـ فقط ـ تتمثل فى الإمكانات المادية لكل من الزوجين ، فهم مخطئون كل الخطأ ، واهمون كل الوهم ، لأن الأسرة هى روح المجتمع ونبضه ، وهى دعامته وركيزته ، هى المادة والروح ، هى العقيدة والعمل ، فليتقوا الله ربهم وليكن البناء الروحى جُلّ همهم ، وعلى الله قصد السبيل وبه الهداية ومنه التوفيق .

الخطبـة

إن الخطبة هى أولى الخطوات العملية لإرساء حجر الأساس للحياة الزوجية وبناء الأسرة ، وإذا كانت هناك دراسات كثيرة حول الطريقة المثلى لوضع دعائم أى بنيان من ناحية الوقت والتكلفة والجهد والأدوات التى تستخدم لذلك ، والمواد التى تعطى أفضل نتائج ممكنة ، فإن مدرسة محمد ـ ﷺ ـ قد حددت منهاجاً سليماً لإرساء دعائم الأسرة ويحفظ لها كيانها مدى الحياة ، ويصونها من أى عواصف أو أعاصير قد تطرأ عليها خلال رحلتها وسط أمواج البشرية ومعترك طباع الحياة .

فما هى تلك الخطوات وما هى الضمانات التى وضعها الشرع الحكيم لإحاطة لكل من الطرفين ولإحاطة الأسرة بسياج متين على أساس من الخلق والدين ؟

اول الأعمال :

أول عمل يعمله الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يريد أن يخطبها ، فإن وافقوا فيمكنه أن يرسل امرأة أمينة لتتعرف على حالتها ، فلعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها ، على أن يراعى أن هناك شروطاً فى المرأة التى تباح خطبتها ، منها :

ـ أن تكون خالية من الموانع الشرعية التى تمنع زواجه منها فى الحال .

ـ ألا يسبق غيره إليها بخطبة شرعية .

فإن كان ثمة موانع شرعية كأن تكون محرمة عليه بسبب من أسباب التحريم المؤبدة أو المؤقتة أو كان غيره سبقه بخطبتها ، فلا يباح له خطبتها .

ـ بالنسبة للتحريم المؤبد فقد بينه الله ـ عز وجل ـ فى قوله ـ تعالى ـ: **﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللآتى أرضعتكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللآتى فى حُجُوركم من نسائكم اللآتى دخلتم بهن فإنه لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً . والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ﴾** [سورة النساء الآية : ٢٤] .

ويسبقها الآية الكريمة : **﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾** [سورة النساء الآيةة : ٢٢] .

بالنسبة للموانع المؤقتة :

١ ـ تحرم خطبة المعتدة سواء أكانت عدتها عدة وفاة أم عدة طلاق وسواء كان الطلاق طلاقاً رجعياً أم بائناً .

فإن كانت معتده من طلاق رجعى حرمت خطبتها[١] لأنها لم تخرج من عصمة زوجها ، وله مراجعتها فى أى وقت شاء ، وإن كانت معتدة من طلاق بائن[٢] حرمت خطبتها بطريق التصريح إذ حق الزوج لا يزال متعلقاً بها ، وله حق إعادتها بعقد جديد ، ففى تقدم رجل آخر لخطبتها اعتداء عليه ، واختلف العلماء فى التعريض بخطبتها ، والصحيح جوازه حتى يكون للمرأة فرصة للتفضيل والاختيار فى أحسن الظروف وليس وسط مهاوى اليأس والضياع .

---

(١) تصريحا أو تلميحًا وهذا من آداب الإسلام العالية والغالية .

(٢) أى بينونة صغرى وذلك بعد الطلقتين الأولى والثانية إذ بعد الثالثة تكون البينونة الكبرى .

وإن كانت معتدة من وفاة فإنه يجوز التعريض لخطبتها أثناء العدة دون التصريح ، لأن صلة الزوجية قد انقطعت بالوفاة ، فلم يبق للزوج حق يتعلق بزوجته التى مات عنها ، وإنما حرمت خطبتها بطريق التصريح رعاية لحزن الزوجة وحدادها من جانب ، ومحافظة على شعور أهل الميت وورثته من جانب آخر .

فالإسلام وهو يقيم دعائم بنيان جديد يأبى أن يقيمه على جرح مشاعر الآخرين ، بل يريد أن يحوطه بسياج من الأمن المعنوى حتى لا يتعرَّض لرياح النفوس البشرية التى يجتاحها الشكوك والأوهام إذا تمت الأمور على وجه السرعة ، ولم يحسب لها حساباً فتأتى النتائج بأوخم العواقب .

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خِطْبَةِ النّسَاء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتّٰى يبلغ الكتابُ أجله واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٣٥] .

والمراد بالنساء هنا المعتدات لوفاة أزواجهن ، حسب الكلام فى هذا السياق القرآن الكريم .

ومعنى التعريض أن يذكر المتكلم شيئاً يدل به على شيء لم يذكره مثل أن يقول : (إنى أريد أن أتزوج) . و (لوددت أن ييسر الله لى امرأة صالحة) أو يقول : (إن الله لسائق لك خيراً) .

والهدية إلى المعتدة جائزة وهى من التعريض .

وخلاصة الآراء : أن التصريح بالخطبة حرام لجميع المعتدات ، والتعريض مباح للبائن وللمعتدة من الوفاة ، وحرام فى المعتدة من طلاق رجعى .

٢ ــ يحرم على الرجل أن يخطب على خطبة أخيه لما فى ذلك من اعتداء على حق الخاطب الأول وإساءة إليه ، وقد ينجم عن هذا التصرف الشقاق بين الأسر والاعتداء الذى يروع الآمنين ، وهو أمر يأباه الإسلام ويرفضه ، لأنه يبنى مجتمعه على أساس من الحب والود والأمن والأمان ، كما أنه لا يرضى للمرأة أن تكون سلعة تباع وتشترى لمن يدفع فيها أكثر ، فهى حجر الأساس المتين والركن الركين فى بناء الأسرة ، ولذلك فلها حرمتها ولها قداستها فى عبور الرجال إليها .

عن عقبة بن عامر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **المؤمن أخو المؤمن فلا يحل له أن يبتاع على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر** »[1] [أخرجه أحمد] .

ومحل التحريم ما إذا صرحت المخطوبة بالإجابة أو صرح وليها الذى أذنت له حيث يكون إذنه معتبراً ، وتجوز الخطبة لو وقع التصريح بالرد أو وقعت الإجابة بالتعريض ، أو لم يعلم الثانى بخطبة الأول أو أذن الخاطب الأول للثانى .

حكى الترمذى عن الشافعى فى معنى الحديث :

إذا خطب المرأة فرضيت به وركنت إليه ، فليس لأحد أن يخطب على خطبته .

موافقة المرأة على الخطبة

لابد من موافقة المرأة على من يتقدم لخطبتها لإقامة الحياة الزوجية على أساس من التراضى بين الطرفين ، وهو أمر لا بد منه لإشاعة الحب والوئام فى جنبات الأسرة ، وليس للأهل إرغام المرأة بحال من الأحوال على الاقتران بشخص لا يتحقق معه الوئام الروحى المنشود فى قوله تعالى : ﴿ **أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة** ﴾ [سورة الروم الآية : ٢١] .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ولمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن فى نفسها وإذنها صمتها** »[2] .

[رواه الجماعة]

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن** »[3] [متفق عليه] .

---

(١) متفق عليه بنظر لفظ مسلم اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ٩١ ط الحلبى .

(٢) متفق عليه بنظر لفظ مسلم اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ ٩١ ط الحلبى .

(٣) اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ٩١ .

قالوا : يارسول الله : كيف إذنها ؟ قال : « **أن تسكت** » .

وعن خنساء بنت خدام أنّ أباها زوَّجها وهى ثيب ، فأتت رسول الله ـ ﷺ ـ فرد نكاحها .

[أخرجه الجماع إلا مسلماً]

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **آمروا النساء فى بناتهن** » أى : شاوروهنَّ .

ولا شك أن هذا يدل على روعة الهدى النبوى ، لأن الأمهات أقرب الناس إلى معرفة ميول بناتهن .

وعن ابن عباس : « إن جَارِيةً بكراً أتت رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرت له أن أباها زوّجها وهى كارهة . فخيّرها النبى » . [رواه أحمد]

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : جاءت فتاة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت : إنى أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيستة .

قال : فجعل الأمر إليها . فقالت : قد أجزت ما صنع أبى ، ولكن أردت أنْ أُعْلِمَ النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شىء[1] .

[رواه ابن ماجه]

استخارة الخطبة

يستحسن قبل الإقدام على الخطبة من كلا الطرفين أن يستخيرا ربهما فى شريك الحياة بعد جمع المعلومات الأولية عنه وذلك حتى يقيما بنيانهما على تقوى الله ورسوله ، ويعلما أن للزواج قدسيته والتزاماته وتبعاته التى ما فرضت إلا ابتغاء مرضاة الله العظيم ورسوله المصطفى الحبيب الذى أرسله للناس بشريعة غرَّاء تحميهم من الأهواء ونزعات الشياطين .

---

(١) بداهة مع توافر الشروط الأخرى فى طالب الزواج من الخلق والذى والمسرورة والحياء .. إلخ .. وهو من مهام ولى المرأة (الفتاة) .

كيفية صلاة الاستخارة للمستخير

عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه .. قال كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعلمنا الاستخارة لى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : « **إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، من غير الفريضة ثم ليقل فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى (أو عاجله وآجله) فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى (أو عاجله وآجله) فاصرفه عنى واصرفنى عنه وأقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به** » [أخرجه البخارى] .

فإذا ما انشرح الصدر إلى الزواج فليقدما على بركة الله ورسوله ، فالزواج ليس رحلة ترفيهية ، ولكنه سُنة نبوية ، فيجب أن يحاط بما يليق به من قدسية ، وأن يبتعد الرجل المؤمن عن التقاليع الغربية والتقاليد الشيطانية ، فنحن أمة مسلمة رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ـ ﷺ ـ نبياً ورسولاً ، والرضا هو السمع والطاعة لكل ما أمر به الله والرسول ، وجعله منهاج حياتنا ، ونور صدورنا ، وربيع قلوبنا ، بهذا وحده يفلح المؤمنون ، ويحققون ما يصبون إليه من سعادة ورفاهية .

﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ [سورة المؤمنون الآية : ٣] .

ماذا يقول من جاء يخطب امرأة من أهلها ؟

يستحب أن يبدأ الخطبة بالحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ـ ﷺ ـ ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، جئتكم راغبا فى فتاتك فلانة أو فى كريمتكم فلانة بنت فلانة .

جاء فى سنن أبى داود وابن ماجه وغيرهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم** » .

وفى بعض الروايات : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ « **كل أمر ذى بالٍ** »[1] .

ومعنى أجذم : أى قليل البركة .

وجاء فى سنن أبى داود والترمذى عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء** » .

ولا شك أن ذكر الله فى كل أمر يشيع الطمأنينة فى القلوب ، ويسبغ الخير والبركة على ذلك الأمر ، أما ما نراه من بدع فى مجتمعنا فهى أبعد ما تكون عن الإسلام ، وهى السر وراء ما يعترى الأسر من مشكلات تزلزل أركانها وتهدد أرجاءها بالزوال ، فحذروا أيها المسلمون من تصدع البنيان ، وأخلصوا العمل فإن الناقد بصير ، واذكروا الله يذكركم ، وابتعدوا عن كل ما حذر منه الحبيب المصطفى ، فقد استعاذ من صَوْتٍ يطلق عند فرحة وَصَوْتٍ يطلق عند مصيبة ، ونحن بلا شك نملك البديل الأسمى والفرح الأعظم وهو ذكر الله : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألاَ بذكر الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [سورة الرعد الآية : ٢٨] .

عقد الزواج

إن عقد الزواج هو الركن الركين فى الخطوات العملية لبناء الأسرة ، حيث وضع الإسلام النظام الملائم الذى يجعل اتصال الرجل بالمرأة لتكوين الحياة الزوجية اتصالاً كريماً مبنياً على رضاهما ، وعلى إيجاب وقبول كمظهرين لهذا الرضا ، وعلى إشهاد على أن كلاً منهما قد أصبح زوجًا للآخر ، هذا النظام الذى ارتضاه الله لقيام الأسرة الإسلامية والحياة الزوجية السليمة لرعاية ما يثمر عن تلك

---

(١) المنهل العذب المورود للامام محمود خطاب السبكى جـ١ صـ٣٢٢ .

العلاقة من أبناءِهُمْ زينة الحياة الدنيا وأزهارها التى تحتاج إلى الرعاية والعناية الفائقة ، لأنهم دعائم المجتمع المسلم وعدته فى المستقبل ، أمّا فيما عدا ذلك من أنظمة لاتصال الرجل بالمرأة فقد هدمها الإسلام وبرىء منها الله ورسوله .

أركان العقد وشروطه

الأركان والشروط تحدثت عنها كتب الفقه ، ونبينها فيما يلى :

أمَّا أركان العقد هى : الإيجاب والقبول .

فالإيجاب : هو ما صدر أولاً من أحد المطرفين للتعبير عن إرادته فى إنشاء الصلة الزوجية .

والقبول : هو ما صدر ثانياً من الطرف الآخر من العبارات الدالة على الرضا والموافقة .

وبتقابل الإيجاب والقبول وتلاقيهما فى المجلس المعقد ينعقد العقد ويتم .

أما ما ذكره الفقهاء من شروط فى العقد فهى :

١ ـ تمييز المتعاقدين :

فإن كان أحدهما مجنوناً أو صغيراً لا يميز فإن الزواج لا ينعقد .

٢ ـ اتحاد مجلس الإيجاب والقبول :

بمعنى ألا يُفصل بين الإيجاب والقبول بكلام أجنبى ، أو بما يعد فى العرف إعراضاً وتشاغلاً عنهما لغيرهما من الأمور .

٣ ـ الا يخالف القبول بكلام أجنبى :

أو بما يعد فى العرف إعراضاً وتشاغلاً عنه بغيره .

٤ ـ الا يخالف القبول الإيجاب :

إلا إذا كانت المخالفة إلى ما هو أحسن للموجب ، فإنها تكون أبلغ فى الموافقة ، فإذا قال للموجب :

زوجتك ابنتى فلانة على مهر قدره مائة جنيه ، فقال القابل : قبلت زواجها على مائتين ، انعقد الزواج ، لاشتمال القبول على ما هو أصلح .

٥ ـ سماع كل من المتعاقدين كلاهما من الآخر ما يُفهم معه أن المقصود من الكلام هو إنشاء عقد الزواج ، وإن لم يفهم كل منهما معانى مفردات العبارة ، لأن العبرة بالمقاصد والنيات .

شروط صيغة العقد :

اشترط الفقهاء لصياغة العقد شروطاً منها :

ـ أن تكون بلفظين وُضِعاً للماضى ، أو وضع أحدهما للماضى والآخر للمستقبل : مثل أن يقول العاقد الأول : زوجتك ابنتى ، ويقول القابل : قبلت ، أو يقول : أزوجك ابنتى . فيقول له : قبلت .

وذلك لأن الصيغة التى اختارها الشرع الحكيم لإنشاء العقود هى صيغة الماضى ، لأن دلالتها على حصول الرضا من الطرفين قطعية ، ولا تحتمل أى معنى آخر . بخلاف الصيغ الدالة على الحال أو الاستقبال ، فإنها لا تدل قطعاً على حصول الرضا وقت التكلم .

فلو قال أحدهما : أزوجك ابنتى ، وقال الآخر : أقبل .

فإن الصيغة منهما لا ينعقد بها الزواج لاحتمال أن يكون المراد من هذه الألفاظ مجرد الوعد ، والوعد بالزواج مستقبلاً ليس عقداً له فى الحال .

ومن شروط صيغة الزواج أن تكون منجزة أى مطلقة غير مقيدة بقيد ، وذلك مثل أن يقول الرجل للخاطب : زوجتك ابنتى . فيقول الخاطب : قبلت .

فهذه صيغة منجزة .

فإن كانت الصيغة مقيدة بشرط غير محقق فى الحال مثل أن يقول الخاطب : إن التحقت بالوظيفة تزوجت ابنتك . فيقول الأب : قبلت .

فإن الزواج بهذه الصيغة لا ينعقد .

كذلك لا ينعقد الزواج بالصيغة الدالة على زمن محدد ، كأن يتزوج مدة شهر أو أكثر أو أقل ، فإن الزواج لا يحل لأن المقصود منه دوام المعاشرة للتوالد والمحافظة على النسل وتربية الأولاد .

ومن ثم فإنه لا يجوز الزواج المؤقت للتحليل أو زواج المتعة لأن الأصل فيه أن من مقاصد أنه عقد على التأبيد إلا إذا حال دونه ذلك سبب شرعى .

وهناك شروط أخرى قد تقترن بها صيغة العقد ، وللفقهاء فيها أحكام ، وقد يكون الشرط من مقتضيات العقد أو يكون منافياً ، أو يكون مما يعود نفعه على المرأة ، أو يكون شرطاً نهى الشارع عنه .

فما كان من مقتضيات العقد ومقاصده فيجب الوفاء به .

وما كان منافياً لمقتضى العقد فلا يجب الوفاء به ، ويصبح العقد صحيحًا ولكن الشروط المنافية هى الباطلة .

وما كان من الشروط التى فيها نفع للمرأة فالعقد صحيح ، ولكن الشروط ملغاة وليس فيها إلزام للزوج ، وهناك من ذهب إلى وجوب الوفاء بما اشترط للمرأة .

فالأول : مذهب أبى حنيفة والشافعى .

والثانى : مذهب عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص ومعاوية وعمرو بن العاص وعمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد وطاووس والأوزاعى وإسحاق والحنابلة ، ولكل من هؤلاء دليله .

وهناك من الشروط ما نهى الشارع عنها ، وهذه يحرم الوفاء بها .

وهذا النهى يقتضى فساد المنهى عنه .

شروط صحة الزواج

يشترط لصحة الزواج شرطان :

إحدهما : ألا تكون المرأة التى يراد زواجها محرمة عليه .

وثانيهما : الإشهار .

أما عن المحرمات تحريماً مؤبداً فإن أسباب التحريم المؤبد ثلاثة وهى :

١ ــ النسب .

٢ ــ المصاهرة .

٣ ــ الرضاع .

وقد ورد ذكر الأنواع الثلاثة فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً * حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللآتى أرضعنكم وأخواتكم من الرَّضاعة وأمهاتُ نسائكم وربائبكم اللآتى فى حجوركم من نسائكم اللآتى دخلتم بِهِنَّ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورًا رحيم** ﴾ [سورة النساء الآيتان : ٢٢ ــ ٢٣] .

المحرمات من النسب هن :

١ ــ الأمهات .

٢ ــ البنات .

٣ ــ الأخوات .

٤ ــ العمات .

٥ ــ الخالات .

٦ ــ بنات الأخ .

٧ ــ بنات الأخت .

المحرمات بسبب المصاهرة هن :

١ ــ أم زوجته وأم أمها وأم أبيها وإن علت لقول الله تعالى ــ: ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ .

ولا يشترط فى تحريمها الدخول بها ، بل مجرد العقد عليها يحرمها .

٢ ــ وابنة زوجته التى دخل بها .

ويدخل فى ذلك بنات بناتها ، وبنات أبنائها وإن نزلن لأمهن من بناتها لقول الله تعالى ــ: ﴿ **وربائبكم اللآتى فى حجوركم من نسائكم اللآتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ [سورة النساء الآية : ٢٣] .

والربائب : جمع ربيبة ، وربيب الرجل : ولد امرأته من غيره سمى ربيباً له ، لأنه يربيه كما يربى ولده (أى يسوسه) .

٣ ـ زوجة الابن وابن الإبنة وابنة بنته وإن نزل لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٣] .

الحلائل : جمع حليلة وهى الزوجة .

٤ ـ زوجة الأب :

يحرم على الابن التزوج بحليلة أبيه بمجرد عقد الأب عليها وإن لم يكن قد دخل بها .

ـ المحرمات بسبب الرضاع :

حرم الشرع الحكيم بسبب الرضاع كُلَّ ما يحرم بسبب النسب وبيانه كما يلى :

والذى يحرم من النسب هو : الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنات الأخ وبنات الأخت وهى التى بينها الله ـ تعالى ـ فى قوله : ﴿ **حرمت علكيم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللآتى أرضعتكم وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ [سورة النساء الآية : ٢٣] .

وعلى هذا فَتُتَنَزلُ المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضع هى وكل من يحرم على الإبن من قبل أم النسب .

فتحرم :

١ ـ المرأة المرضعة لأنها بإرضاعها تعد أماً للرضيع .

٢ ـ أم المرضعة لأنها جدة له .

٣ ـ أم زوج المرضعة ـ صاحب اللبن ـ لأنها جدة له .

٤ ـ أخت الأم لأنها خالتة .

٥ ـ أخت زوجها ـ صاحب اللبن ـ لأنها عمته .

٦ ـ بنات بنيها وبناتها لأنهن بنات أخوته وأخواته .

٧ ـ الأخت سواء أَكَانَتْ أُختاً لِأَبٌ وأم ، أَوْ أُختاً لأمٌ أَوْ أُختاً لِأَبٌ .

المحرمات مؤقتاً :

ـ الجمع بين المحرمين :

يحرم الجمع بين الأختين وبين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ، كما يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة لو كانت إحداهما رجلاً لم يجز له التزوج بالأخرى .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف** ﴾ [سورة النساء الآية : ٢٣] .

وما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : أن النبى ـ ﷺ ـ نهى أن يُجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها .

وإذا وقع العقد صحيحاً نافذاً ترتبت عليه آثاره ، ووجبت بمقتضاه الحقوق الزوجية وهى :

١ ـ حقوق واجبة للزوجة على زوجها .

٢ ـ حقوق واجبة للزوج على زوجته .

٣ ـ حقوق مشتركة بينهما .

وقيام كل من الزوجين بواجبه ، والاضطلاع بمسئولياته ، هو الذى يوفر أسباب الاطمئنان والهدوء النفسى ، وبذلك تتم السعادة الزوجية .

أما عن الحقوق الواجبة للزوجة على زوجا فهى :

١ ـ **حقوق مالية** : وهى المهر والنفقة .

٢ ـ **حقوق غير مالية** : مثل العدل بين الزوجات إذا كان الزوج متزوجاً بأكثر من واحدة ، ومثل عدم الإضرار بالزوجة .

وأما عن الحقوق الواجبة للزوج على زوجته فقد قال الفقهاء :

ومن حق الزوج على زوجته القرار فى البيت : قال تعالى : ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين ذكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾ [سورة الأحزاب الآية : ٣٣] .

ومن حق الزوج أيضاً القيام بتأديب زوجته وتهذيبها بالمعروف اللائق بمكانها ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللآتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٣٤] .

جعلت الآية النساء نوعين :

النوع الأول : الصالحات ، وهؤلاء لَسْن فى حاجة إلى تأديب .

والنوع الثانى : غير الصالحات ، وهن اللآتى يحاولن الخروج عن حقوق الزوجية والنشوز عن طاعة أزواجهن وعصيانهن لهم ، وهؤلاء فى حاجة إلى الإصلاح والتهذيب والتأديب ليردهن إلى الصواب .

ولما كانت طبائع النساء تختلف باختلاف البيئة وتنوع التربية ، وكان من الذنوب الصغيرة والكبيرة ، شرع الله تعالى من أساليب التهذيب ووسائل التأديب ثلاثاً ليختار الزوج منها ما يلائم الذنب وحال الزوجة :

الوسيلة الأولى :

الموعظة الحسنة ، وهذه تلائم المرأة التى تكفيها الإشارة أو الكلمة أو الذنب الصغير ، والرجل أدرى بما يؤثر فى زوجته .

الوسيلة الثانية :

الهجر فى المضجع . وقد حدد العلماء مدة الهجر بما لا يبلغ مدة الإيلاء المقدرة بأربعة أشهر .

الوسيلة الثالثة :

الضرب ، وهو علاج الشرسات اللآتى لا يجدى فيهن الوعظ ولا الهجر ولا يصلح مثلهن إلا به ، وقد جعله الشارع الحكيم آخر الوسائل الإصلاحية التى يملكها الرجل ولا يلجأ إليه إلا عند الضرورة .

ففى السُنة : أن رسول الله ـ ﷺ ـ خطب الناس فى حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ثم قال : « **استوصوا بالنساء خيراً فإنما هنَّ عوان عندكم**

ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً »[1] [رواه ابن ماجة والترمذى حسن صحيح] .

وروى أن النبى ـ ﷺ ـ سأله رجل : ما حق المرأة على الزوج ؟

قال : « **تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت** »[2] [رواه أبو داود وابن حبان] .

تقبحٌ : أى لا تسمعها المكروه ولا تشتمها . ولا تقل قَبَّكَ الله ، ونحوه .

فإن أساء الزوج فى استعمال حقه فى تأديب الزوجة وزاد عن القدر اللازم لإصلاحها كان متعدياً .

ولو استعمل الرجل كلَّ وسائل التأديب ، واستنفذ طرق العلاج التى يملكها بما فيها وسيلة الضرب ولم يُجْدِ ذلك فى إصلاح الزوجة ، لجأ إلى المرحلة الرابعة كما قال تعالى : ﴿ **وإن خفتم شِقَاقَ بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أَهْلِهَا إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كَانَ عَلِيماً خَبِيراً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٣٥] .

أما عن الحقوق المشتركة بين الزوجين فهى كما يلى :

١ ـ حل العشرة الزوجية ، واستمتاع كل من الزوجين بالآخرة ، وهذا الحل مشترك بينهما ، فيحل للزوج من زوجته ما يحل لها منه ، وهذا الاستمتاع حَقٌّ للزوجين ولا يحصل إلا بمشاركتهما معاً لأنه لا يمكن أن ينفرد به أحدهما .

٢ ـ حرمة المصاهرة :

أى أن الزوجة تحرم على آباء الزوج وأجداده وأبنائه وفروع أبنائه وبناته ، كما يحرم هو على أمهاتها وبناتها وفروع أبنائها وبناتها ... بطريق التقابل الشرعى .

---

(١) منتقى الترغيب والترهيب يبلغ مدة الإيلاء المقدرة شرعًا بأربعة أشهر جـ٢ صـ٥٥٥ .

(٢) منتقى الترغيب والترهيب جـ٢ صـ٥٥٥ .

٣ ـ ثبوت التوارث بينهما بمجرد إتمام العقد ، فإذا تُوُفِّى أحدهما بعد إتمام العقد ورثه الآخر ولو لم يتم الدخول .

٤ ـ ثبوت نسب الولد من الزوج صاحب الفراش .

٥ ـ المعاشرة بالمعروف : فيجب على كل من الزوجين أن يعاشر الآخر بالمعروف حتى يسودهما الوئام ويظلهما السلام .

استحباب وصايا الزوجة

قال أنس : كان أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ إذا زفوا امرأة على زوجها ـ يأمرونها بخدمة الزوج ورعاية حقه[1] .

وصية الأب ابنته عند الزواج

أوصى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ابنته فقال : إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وإياك وكثرة العتب فإنه يورث البغضاء ، وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة . وأطيب الطيب الماء[2] .

وصية الزوج زوجته

قال أبو الدرداء لامرأته :

إذَا رأَيْتِنِى غَضِبْتُ فَرضِّنِى ، وِإذَا رَأَيْتُكِ غَضْبَى رَخَيْتُكِ[2] ، وإلا لم نصطحب .

---

(١) ما أراهم إلا طلابًا للآخرة الباقية .

(٢) يكون معها هينا لينا سهلاً .. وليس شديدًا .

وقال أحد الأزواج لزوجته :

خذى العفو منى تستديمى مودتى
ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرك الدف مرة
فإنك لا تدرين كيف المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالقوى
ويأباك قلبى والقلوب تَقَلَّبُ
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وصية الأم ابنتها عند الزواج

خطب عمرو بن حجر ملك كندة أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى ، ولما حان زفافها إليه خلت بها أمها أمامة بنت الحارث فأوصتها وصية تبين فيها أسس الحياة الزوجية السعيدة وما يجب عليها لزوجها ، فقالت :

أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك لك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل .

ولو أنَّ امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها ــ كنت أغْنَ الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أى بنية ــ إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العُشَّ الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح عليك رقيباً ومليكاً ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً ، واحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً .

أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة .

وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس لماله والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير وفى العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمراً ، ولا تفشين له سراً ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره .

ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهموماً ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً[1] .

وصايا الرسول للزوج فى الوفاء بحق زوجته وحسن عشرتها

عن ميمون عن أبيه – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ –: « **أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر ، أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها ، فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زَانٍ** »[2] .

– وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « **كلكم راع ومسئول عن رعيته ، والإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** »[3] .

[رواه البخارى ومسلم]

---

(١) فقط موعظة الرجل ابنته لحال زوجها جـ٩ صـ٢٧٨ من فتح البارى ط السلفية القاهرة وشرحها الجيد .

(٢) السنن الكبرى للبيهقى .

(٣) اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ٢٤٢ ط الحلبى .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً وخيارُكم خيارُكم لنسائهم** »[1] .

[أخرجه أحمد والترمذى حسن صحيح]

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً وألطفهم بأهله** » .

[رواه الترمذى والحاكم]

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى** » . [رواه ابن ماجه]

وعن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **إن المرأة خلقت من ضلع ، فإن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها** » .

[رواه ابن حبان فى صحيحه]

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء** »[2] .

[رواه البخارى ومسلم وغيره]

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنها ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً ، إن كره منها خُلُقاً رضى منها آخر** » .

[رواه مسلم]

وعن معاوية بن حيدة ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يارسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟

قل : « **أن تعطمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تُقبح ولا تهجر إلا فى البيت** » .

[رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه]

---

(١) فتح الملك المعبود بتكليم العذاب المورود جـ٤ صـ٤١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ١١٠ ، فتح البارى جـ٩ صـ٢٥٣ ط السلفية القاهرة مسبوقًا بالوصاة بالجار .

وعن عمرو بن الأحوص الجُشمى ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ فى حجة الوداع يقول : بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال : « **ألا واستوصوا بالنساءِ خيراً ، فإنما هنَّ عوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلاَّ أن يأتين بِفَاحِشَةٍ مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مُبّرحٍ ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشَكُمْ من تكرهون ، ولا يأذنَّ فى بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهُن عليكم أن تُحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن** » .

[رواه ابن ماجه والترمذى حديث حسن صحيح]

وصية الرسول ـ ﷺ ـ للمرأة بطاعة زوجها وعدم مخالفته

عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة** » .

[رواه ابن ماجه والترمذى والحاكم]

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **إذا صلَّت المرأة خمسها ، وحصَّنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت** » .

[رواه ابن حبان فى صحيحه]

وعن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، واعاطت زوجها قيل لها : إدخلى الجنة من أى أبواب الجنة شئت** » رواه أحمد والطبرانى ، ورواه أحمد رواه الصحيح خلا ابن لهيعة ، حديثة حسن فى المتابعات .. والمتن صحيح .. وخرجه الألبانى فى صحيح الجامع .

وعن حُصين بن محصن ـ رضى الله عنه ـ أن عمة له أتت النبى ـ ﷺ ـ فقال لها : « **أذات زوج أنت ؟ قالت : نعم . قال : فأين أنت منه ؟ قالت : ما آلوه إلا ما عجزت عنه . قال : فكيف أنت له ؟ فإنه جنتك ونارك** » .

[رواه أحمد والنسائى بإسنادين جيدين والحاكم قال هو صحيح والبيهقى جـ٧ صـ٤٧٦]

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟

قال : زوجها . قلت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ قال : أمه » .

[رواه البزار بسند صحيح والحاكم وصححه]

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنها ـ قال : جاءت امرأة إلى النبى ـ ﷺ ـ فقالت : يارسول الله ! أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أُجروا ، وإن قُتلوا كانوا أحياء عند ربهم يُرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله ـ ﷺ ـ:

« **أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج ، واعترافاً بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله** » .

[رواه البزار]

وعن ابن سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى رجل بابنته إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : إن ابنتى هذه أبت أن تتزوج . فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: « **أطيعى أباك** » . فقالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرنى ما حق الزوج على زوجته ؟ قال : « **حق الزوجة على زوجته لو كانت به قُرحة فلحستها (أو انتثر منخراه صديداً أو دماً ثم ابتعلته) ما أدت حقه** » . (قالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج أبداً) .

فقال النبى ـ ﷺ ـ: « **لا تنكحوهن إلا بإذنهن** »[1] .

[رواه البزار بإسناد جيد]

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى جـ١٠ صـ٤٧٦ بدون ما بين المعكوفين .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قالت : أنا فلانة بنت فلان . قال : « **قد عرفتك فما حاجتك ؟** » قالت : حاجتى إلى ابن عمى فلان العابد . قال : « **قد عرفته** » . قالت : يخطبنى فأخبرنى ما حق الزوج على الزوجة ؟ فإن كان شيئاً أطيقه تزوجته ؟

قال : « **من حقه أن لو سال منخراه دماً وقيحاً فلحسته بلسانها ما أدت حقه ، لو كان ينبغى لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها إذا دخل عليها لما فضّله الله عليها** » . قالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج ما بقيت الدنيا .

[وراه البزار والحاكم]

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه ، وإن استصعب عليهم فمنعهم ظهره ، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا : إنه كان لنا جمل نسنى عليه ، وإنه استصعب علينا ، ومنعنا ظهره ، وقد عطش الزرع والنخل ؟ فقال ـ ﷺ ـ لأصحابه : « **قوموا** » . فقاموا فدخل الحائط ، والجمل فى ناحيته ، فمشى النبى ـ ﷺ ـ نحوه ، فقالت الأنصار : يارسول الله قد صار مثل الكلبِ الكلبِ نخاف عليك صولته ؟ قال : ليس علىّ منه بأس ، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أقبل نحوه حتى خرَّ ساجداً بين يديه ، فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بناصيته أذلّ ما كانت قط حتى أدخله فى العمل ، فقال له أصحابه : يارسول الله هذا بهيمة لا يعقل ! يسجُدُ لك ؟ ونحن نعقل ، فنحن أحق أن نسجد لك .. قال عليه الصلاة والسلام .

« **لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها ، لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقبح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه** »[1] .

[رواه أحمد والنسائىّ وابن حبان فى صحيحه]

وعن قيس بن سعد ـ رضى الله عنها ـ قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فقلت : رسول الله ـ ﷺ ـ أحق أن يُسجد له ، فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ، فقلت : إنى أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت أحق أن

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى جـ١٠ صـ٤٧٥/٤٧٧ ط دار الكتب العلمية بيروت .

يُسجد لك ، فقال لى لا تفعلوا : « **أرأيت لو مررت بقبرى أكنت ساجدا ؟ لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدوا لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق** »[1] .

[رواه أبو داود]

وعن عبد الله ابن أبى أو فى – رضى الله عنه – قال : « لما قدم معاذ ابن جبل من الشام سجد للنبى – ﷺ – فقال رسول – ﷺ –: ما هذا ؟ قال : يارسول الله قدمت الشام ، فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك لك ، قال : « **فلا تفعل . فإنى لو أمرت شيئاً أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها** »[2] .

[رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه]

ولفظ ابن ماجه : فقال رسول الله – ﷺ –: « **لا تفعلوا ، فإنى لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذى نفس محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها ، ولو سألها نفسها وهى على ظهر قتب (بعير) لم تمنعه** »[3] .

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « **ألا أخبركم برجالكم فى الجنة ؟ قلنا : بلى يارسول الله . قال : « النبى فى الجنة ، والصدّيق فى الجنة ، والرجل يزور أخاه فى ناحية المصر ، لا يزوره إلاّ لله فى الجنة ، ألا أخبركم بنسائكم فى الجنة ؟** » قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « **ودودٌ ولودٌ إذا غضبت أو أُسىءَ إليها أو غضب زوجها قالت : هذه يدى فى يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى** » .

[رواه الطبرانى]

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « **لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه وما أنفقت**

(١،٢،٣) السنن الكبرى للبيهقى جـ١٠ صـ٤٧٥ ط دار الكتب العلمية بيروت .

من نفقة عن غير أمره فإنه يؤدى إليه شطره »[1] [رواه البخارى ومسلم] .

وعن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « **لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تأذن فى بيت زوجها وهو كاره ، ولا تخرج وهو كاره ، ولا تطيع فيه أحداً ، ولا تعتزل فراشه ، ولا تُصْرِمُهُ ، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى تُرضيه ، فإن هو قبل منها فبها ونعمت ، وقبل الله عذرها وأفلج حجتها ، ولا إثم عليها ، وإن هو لم يرض ، فقد أبلغت عند الله عذرها** »[2] .

[رواه الحاكم]

وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن امرأة من خثعم أتت رسول الله – ﷺ – ، فقالت : يارسول الله ! أخبرنى ما حق الزوج على الزوجة فإنى امرأة أيم ؛ فإن استطعت ، وإلَّا جَلَسْتُ أيِّماً .

قال : « **فإن حق الزوج على زوجته إن سألها نفسها وهى على ظهر قتب أن لا تمنعه نفسها ، ومن حق الزوج على الزوجة أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ، ولا يُقبل منها ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء ، وملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب حتى ترجع** » . قالت : لا جرم ولا أتزوج أبداً [رواه الطبرانى][3]

وعند زيد بن أرقم – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ –: « **المرأة لا تؤدى حق الله عليها حتى تؤدى حق زوجها كله ، ولو سألها وهى على ظهر قتب لم تمنعه نفسها** » [رواه الطبرانى] .

وعن عبد بن عمرو – رضى الله عنهما – عن رسول الله – ﷺ – قال : « **لا ينظر الله تبارك وتعالى – إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهى لا تستغنى عنه** » .

[رواه النسائى والبزار]

وعن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « **لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل ، يوشك أن يفارقك إلينا** » .

[رواه ابن ماجه والترمذى]

---

(١) فتح البرى ط السلفية القاهرة جـ٩ صـ٢٩٣ ، ٢٩٥ برقم (٥١٩٥) .

(٣،٢)السنن الكبرى للبيهقى جـ٧ صـ٤٧٨ ط دار الكتب العلمية .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنها ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته ، فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تُصبح** »[1] [رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى] .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

« **ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه ، فيضع يده فى أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو** » [رواه الطبرانى] .

المرأة هى البنت

فضل تربية البنات :

عن عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئاً غير تمرة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت وانتباها ، فدخل رسول الله ـ ﷺ ـ علينا ، فأخبرته ، فقال : « **من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار** »[2] .

[رواه البخارى ومسلم]

لقد جاء الإسلام ليعيد للبنت حقها الذى حرمت منه أياماً طويلة وأعواماً عديدة ، فقد كانت البنت تدفن حية فى التراب ، وكان البعض يقتلها وهى رضيعة أو يقوم بذبحها أو بيعها ، فجاء الإسلام بنوره ، وبدد الكفر بظلامه ، وحرّم هذه الأفعال ، وأوعد القائمين بفعلها بسوء الخاتمة والعاقبة .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ٢ صـ١٠٠ ط الحلبى .

(٢) القرطبى ط دار الكتب المصرية ج١٠ صـ١١٧ .

قال تعالى : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون** ﴾ .

[سورة النحل الآيتان : ٥٨ ـ ٥٩]

وقال تعالى : ﴿ **وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قُتلت** ﴾ [سورة التكوير الآية : ٩] .

جاء الإسلام بدعوته إلى المساواة والعدل الشاملين ، لم يفرق فى المعاملة الرحيمة ، والعطف الأبوى ، بين رجل وامرأة ، وذكر وأنثى ، تحقيقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٨] .

وقال ـ ﷺ ـ : « **اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم** » .

ومن هنا فإن هذا الأمر القرآنى والتوجيه النبوى ، قد جعل مبدأ العدل والمساواة العملة السائدة فى تربية البنين والبنات دون أن يكون هناك تفريق بين الذكور والإناث .

هكذا دمَّر الإسلام تلك العادات الجاهلية البغيضة ، وهذه الأعراف الجاهلية التى كانت ترتكب مع كل بنت تولد وأعاد للمرأة حريتها المسلوبة وكرامتها التى ديست .

وما كان ذلك إلا بسبب قلة الدين وضعف اليقين .

ما كان ذلك إلا لعدم رضائهما بما قسمه الله لهم من إناث .

كان مولد البنت هو العار الأكبر والإثم الذى لا يغتفر ، ومع ذلك لم يتمكن أحد منهم من رد إرادة الله ولا إلغاء قدرة الله ، فقد قال تعالى : ﴿ **لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير** ﴾

[سورة الشورى الآية : ٥٠]

روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله : إنى وأدت بنات لى فى الجاهلية .

قال : « اعتق عن كل واحدة منهن رقبة . قال : يارسول الله إلى صاحب إبل . قال : فانحر عن كل واحدة منهن بدنة » .

قال تعالى : ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ﴾ .

[سورة الأنعام الآية : ١٤٠]

أى لخفة عقولهم ، وجهلهم بصفات ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ فقد كان الواحد منهم يفخر بهذا العمل ، ويقول لمن رزقه بالبنت : « آمنكم الله عارها ، وكفاكم مؤنتها ، وصاهرتم القبر » .

وقال الشاعر الجاهلى فى هذا :

لكل أب بنت يراعى شئونها
ثلاثة أصهار إذا حُمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها
وقبر يواريها وخيرهم القبر

ومن طرائف ما يروى أن أميراً من العرب يكنى بأبى حمزة ، تزوج امرأة ، وطمع أن تلد له غلاماً ، فولدت له بنتاً ، فهجر منزلها ، وصار يأوى إلى بيت غير بيتها ، فمر بخبائها بعد عام ، وإذا هى تداعب ابنتها بأبيات من الشعر ، تقول فيها :

ما لأبى حمزة لا يأتينا
يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا
نُنبت ما قد زرعوه فينا

فلما سمع أبو حمزة منها هذا القول ، غلبه حنان الأبوة ، فغدا حتى دخل البيت ، بعد أن أعطته هذه الزوجة هذا الدرس العملى فى الإيمان ، والرضا ، واليقين ، فلما

دخل البيت قبَّل رَأسَيْ امْرأته وابنتها ، ورضى بعطاء الله الذى قدره له ، وعاد إلى رشده وصوابه .

ومن هنا فإننا نشير إلى أن الرسول ـ ﷺ ـ قد خصّ البنات بالذكر ، وأمر الآباء والمربين بحسن صحبتهن ، والعناية بهن ، والقيام على أمورهن ، والاهتمام بتربيتهن .

وهذه بعض التوجيهات النبوية الكريمة فى وجوب العناية بالبنات :

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضمَّ أصابعه** »[1] .

[رواه مسلم واللفظ له ، والترمذى] ولفظه :

« **من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين ، وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها** » .

ورواه ابن حبان فى صحيحه ولفظه : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **من عال ابنتين أو ثلاثاً ، أو أختين أو ثلاثاً حتّى يَبِنَّ أو يموت عنهن ، كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين ، وأشار بأصبعين : السبابة والتى تليها** » .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه ، أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة** » .

[رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن حبان فى صحيحه]

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من كفل يتيماً له ذا قرابة ، أو لا قرابة له ، فأنا وهو فى الجنة كهاتين ، وضمَّ أصبعيه ، ومن سعى على ثلاث بنات فهو فى الجنة ، وكان له كأجر . مجاهد فى سبيل الله صائماً قائماً** » [رواه البزار] .

---

(١) منتقى الترغيب والترهيب جـ٢ صـ٥٦٣ ط دار الوفاء .

وروى الطبرانى عن عوف بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **ما من مسلم يكون له ثلاثة بنات فينفق عليهن حتى يبنَّ أو يُمتْن إلا كنَّ له حجاباً من النار . فقالت له امرأة : أو بنتان ؟ قال : وبنتان** » .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **من كان له ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، أو بنتان ، أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة** » .

[رواه الترمذى واللفظ له]

وأبو داود إلا أنه قال : « **فأدّبهن ، وأحسن إليهن ، إلا دخل الجنة** » .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده ، (يعنى الذكور) عليها أدخله الله الجنة** » .

[رواه أبو داود والحاكم صحيح الإسناد]

قوله : لم يئدها : أى لم يدفنها حية ، وكانوا يدفنون البنات أحياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت** ﴾ [سورة التكوير الآية : ٩] .

وعن المطلب بن عبد الله المخزومى ـ رضى الله عنه ـ قال : دخلت على أم سلمة زوج النبى ـ ﷺ ـ فقالت : يا بُنى : ألا أحدثك بما سمعت من رسول الله ـ ﷺ ـ ؟

قلت : بلى يا أمه .

قالت : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **من أنفق على ابنتيه أو أختيه أو زوارتى قرابة يحتسب النفقة عليهما حتى يغنيهما من فضل الله ، أو يكفيهما كانتا له ستراً من النار** » .

[رواه أحمد والطبرانى]

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من كنَّ له ثلاث بنات يؤويهن ، ويرحمهن ، ويكفلهن ، وجبت له الجنة البتة .**

قيل : يارسول الله فإن كانتا اثنتين ؟

قال : وإن كانتا اثنتين .

قال : فرأى بعض القوم أن لو قال واحدة .

لقال : واحدة »[1] .

[رواه أحمد بإسناد جيد والبزار والطبرانى]

من كان له ثلاث بنات دخل الجنة

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « **من كنّ له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرّائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن .**

فقال رجل : واثنتان يارسول الله ؟

قال : واثنتان .

قال رجل : يارسول الله : وواحدة ؟

قال : وواحدة »[2] .

[رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد]

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن عقبة بن عامر الجهنى قال :

سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « **من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن ، وسقاهن وكساهن من جِدَتِهِ (أى ماله) كن له حجاباً من النار** » .

وهكذا ينبغى عدم التفرقة بين البنات وبين الذكور سواء فى المعاملة أو فى التربية أو فى الميراث . فلقد دخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبى سفيان ، وَبُنَيَّةٌ له تمرغ على صدره .

فقال ابن الزبير : أمطها عنك يأمير المؤمنين .

---

(١) منتقى الترغيب والترهيب جـ٢ صـ٥٦٤ ط دار الوفاء وزاد الطبرنى فى الأوسط « ويزوِّجُهُنَّ » .

(٢) منتقى الترغيب والترهي ط دار الوفا جـ٢ صـ٥٦٤ .

فقال معاوية : مهلاً ياابن الزبير ، فما مرَّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا برَّ الأحياء كهُنّ .

فقال ابن الزبير : قد تركتهن آثر عندى من الأبناء ، ولقد كانوا ينتظرون مولد البنت ، ويهنئون بعضهم البعض .

قال ابن المقفع لرجل ولدت له جارية : بارك الله لك فى الإبنة المستفادة ، وجعلها لكم زَيْناً ، وأجرى لكم عليها خيراً ، فلا تكرهنهن فإنهن الأمهات والأخوات ، والعمات ، والخالات ، ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم ، ثم أنشد يقول :

سخطت بنية عما قليل
تُسَرُّ بها عيون الناظرات
فبارك فى فطيمة ربُّ موسى
وأنبتها نبات الصالحات
وزادك عاجلاً أخرى سواها
لسخطك إذا سخطت على البنات

ولقد رزقت امرأة ببنت ، فقيل لها إنها بنت ، فأنشدت تفخر وتقول :

وما علىّ أن تكون جارية
تحفظ بينى وترد العارية
تمشط رأسى وتكون الغالية
وتحمل الفاضل من خماريه
حتى إذا ما بلغت ثمانية
وزينت بنقبة يمانية
زوجتها مروان أو معاوية
أزواج صدقٍ بمهور غالية

إن الإسلام أراد أن يجعل فى البنات مرتبة علياً ، ومنزلة سامية ، وقد كان لهن هذا فى الإسلام ، وفى هذا يقول الصاحب بن عباد :

أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون .

فلو كان النساء كمن ذكرنا
لفضّلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب
وما التذكير فخرٌ للهلال

ثم يكمل الصاحب بن عباد كلامه عن البنت وفضائلها : « الدنيا مؤنثة ، والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحُلّيت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة ، وهى قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ، ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وُعد المتقون ، وفيها ينعم المرسلون » .

فعلى كل من أراد أن يربى أن ينهل مِن المنهل العذب المورود ، وأن يتأسى بوصايا خاتم الأنبياء وإمام المرسلين .

نصيحة إلى كل فتاة تؤمن بالله :

وعلى كل فتاة أن تحسن إلى نفسها ، وأن تقوم بتعاليم ربها ، ووصايا نبيها ، واذكرى أنك ستحاسبين وحدك أمام الله على أفعالك ، لا يغنى عنك والد ، ولا ولد ، واسمعى إلى أحد الصالحين وهو يقول :

خرجت من بطن أمى وحدى ، وسأدخل قبرى وحدى ، وسألقى حسابى وحدى ، فمالى وللناس ؟ كما قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **وكلهم آتِيَه يَوْمَ القيامة فرداً** ﴾ [سورة مريم الآية : ٩٥] .

فاعملى بالوصايا النبوية ، لتسعدى فى دنياك وآخرتك ، واحرصى أيتها البنت على الخشوع فى صلاتك وابتعدى عن كل ما يذهب عنك الخشوع ، واعلمى أن الخشوع هو لين القلب ورقته ، وخضوعه لله تعالى ، وهو خفض الصوت وسكونه ، وإذا خشع قلبك لله ، تبعته كل جوارحك ، فيخشع سمعك ، وبصرك وعقلك ، وسائر الأعضاء منك تخشع بخشوع القلب .

ولذا رأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

لقد مر عصام بن يوسف - رحمه الله تعالى - بحاتم الأصم - رضى الله عنه - ، وكان من العابدين الخاشعين ، فقال له ياحاتم : تُحسن تصلى ؟ قال : نعم .

قال : كيف ؟

قال حاتم : أقوم بالأمر ، وأمشى بالخشية ، وأدخل بالنية ، وأكبِّر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم بالنية ، وأختمها بالإخلاص لله - عز وجل - ، وأرجع على نفسى بالخوف ، أخاف أن لا يقبل منى .

ولكن حذار أيتها الفتاة أن تشقى نفسك فى عبادة ربك ، فإن من شقَّت على نفسها فى العبادة ، قد خالفت روح الإسلام ، وسوف ينتهى بها الحال إن عاجلاً أو آجلاً إلى الملل والسآمة ، أو الضجر أو العجز عن القيام بهذه العبادة .

قال - ﷺ -: « **إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة** »[1] [رواه البخارى] .

فاعتدلى فى عبادتك ، فلا تقصرى فيها ، ولا تبالغى ، فلم يكلفك الله - عز وَجَلَّ - أَنْ تُشَدِّدِى عَلَى نَفْسِكِ ، فى أداء ما طلب منك ، أن تؤديه ، كأن تسرفى على نفسك فى النوافل إسرافاً مرهقاً ، فإن ذلك سوف يصل بك إلى الملل أو الاعتدال ، أو العجز جملة عن أداء ما عليك من تكاليف دينية وأعمال تعبدية ، وواجبات دنيوية .

لقد طلب الإسلام أن نعمل للآخرة كما نعمل للدنيا ، ولا نهمل عمل الدنيا من أجل عمل ، ولا نهمل عمل الآخرة من أجل عمل الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة وَلَا تَنْسَى نَصِيبك من الدنيا** ﴾ [سورة القصص الآية : ٧٧] .

---

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول للشيبانى جـ١ صـ٣٠ ط المطبعة السلفية بمصر .

هذا هو منهج الإسلام الوسط ، لا إفراط ولا تفريط . والخير كل الخير فى الاعتدال والاقتصاد فى الطاعة .

المرأة هى الأخت

وبعد أن كرَّم الإسلام المرأة فى مجال الأمومة وفى مجال الزوجية وفى مجال النبوة ها هو الإسلام يواصل تكريم المرأة الأخت ويحسن لها العطاء ويرفع عنها أواصر القطيعة والحرمان .

ها هو الإسلام يأمرنا بصلة الرحم ويُحرّم قطيعتها ، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة .**

قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟

قالت : بلى .

قال : فذاك لك »[1] .

ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **اقرءوا إن شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾** » .

[سورة محمد الآية : ٢٤]

وروى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله** »[2] .

قال القرطبى : « الرحم عبارة عن قرابة الرجل من جهة قيام الرحم وكلاهما : من باب التصوير والتمثيل أو الحقيقة طرفى آبائه وإن علوا ، وأبنائه وإن سفلوا ، وما يتصل بالطرفين من الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأخوة والأخوات وما يتصل بذلك من أولادهم » .

---

(١) الأدب المفرد للبخارى جـ١ صـ١٢٧ وفتح البارى جـ١٠ صـ٤١٧ باب الأدب ط السلفية القاهرة واللفظ للبخارى واللؤلؤ والمرجان جـ٣ صـ١٨٧ .

(٢) متفق عليه منتقى الترغيب باب الأدب والترهيب جـ٢ صـ٦٨٤ .

وهذا الذى ذكره القرطبى هو أحسن ما قيل فى تعريفها وبيان المراد منها فى هذا الحديث ، إذا الظاهر أن المراد الأقارب جميعهم سواء أكانوا أصولاً أم فروعاً أم حواشى ، وسواء أكانوا من قبل الأم أم قبل الأب .

والعائذ : المستعيذ ، وهو المعتصم بالشيءالمستجير به ، والقطيعة الهجران وعدم التعطف والوصل .

والمقصود من هذا الحديث هو الإخبار عن تأكد صلة الرحم وتعظيم حقها وبيان منزلتها عند الله وصلة واصلها وإثم قاطعها ، فقد أنزلها الله سبحانه مَنْزِلَةَ من استجار به ، وجار الله سبحانه غير مخذول ولا مضيع .

وقال ـ ﷺ ـ: « **إن الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته** »[1] [رواه البخارى عن أبى هريرة]

وروى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله** » .

والمراد بتعلقها بالعرش : الكناية عن قربها من ربها وزيادة إكرامها والعناية بها وأن الله حفىّ بها ، يصل من وصلها ويقطع من قطعها ، وكأن الرحم لما قال لها الله هذا القول شرعت تقول هذا القول وتردده .

والرحم رحمان : عامة وخاصة فالعامة : رحم الدينَ تَجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم والنصيحة لهم وترك مضارتهم والعدل بينهم ، والنصفة فى معاملتهم ، والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم .

وأما الرحم الخاصة وهى رحم القرابة من طرفى الرجل وأبيه وأمه فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة ، كالنفقة وتفقد أحوالهم وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدىء بالأقرب فالأقرب[2] .

---

(١) فتح البارى ط السلفية جـ١٠ صـ٤١٧ .

(٢) انظر الأدب المفروط جـ١ صـ١٢٨ منهال كلاغ جيته ، وانفتح جـ١٠ صـ٤١٨ .

وهذه الرحم الخاصة هى المرادة فى الحديث .

وقال - ﷺ - : « **لا يدخل الجنة قاطع رحم** » .

ومن هنا فإننا نقدم كلمة فى قطيعة الرحم :

ومما ينبغى أن يُعلَمَ أن قطع الرحم هو ترك صلتها والإحسان إليها وهو كبيرة من الكبائر ، وهو المعول عليه عند العلماء .

قال الألوسى فى تفسيره :

وقد حكى الإمام القرطبى فى تفسيره اتفاق الأمة على حرمة قطع الرحم ووجوب صلتها ، وينبغى التوقف فى كون القطع كبيرة ، والعجب من الرافعى عليه الرحمة ، كيف توقف فى قول صاحب الشامل : إنه من الكبائر ، وكذا تقرير النووى - رحمه الله - له على توقفه .

وقد وردت فى الزجر والتنفير من قطع الرحم أحاديث كثيرة .

فقد أخرج ابن حبان والحاكم عن أبى موسى رفعه : « **لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا مُصدق بسحر ، ولا قاطع رحم** »(١) .

[وقد حسنه الألبانى غاية المرام]

وروى أبو داود من حديث أبى بكره رفعه : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم »(٢) .

[رواه ابن ماجة والترمذى وحسنه وصححه الحاكم]

وروى البخارى فى الأدب المفرد من حديث أبى هريرة مرفوعاً : « **إن أعمال بنى آدم تعرض كل عشية خميس ليلة الجمعة ، فلا يقبل عمل قاطع رحم** » [رواه أحمد ورجاله ثقات] .

وروى الطبرانى من حديث ابن مسعود : « **إن أبواب السماء مغلقة دون قاطع الرحم** » .

---

(١) منتقى الترغيب والرتهيب جـ٢ صـ٧٩٢ ط دار الوقاء برقم (١٨٥٨) .

(٢) منتقى الترغيب والترهيب ط دار الوفاء جـ٢ صـ٦٨٦ .

وروى البخارى أيضاً فى الأدب المفرد من حديث ابن أبى أوفى يقول عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **إنّ الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم** » .

قال الطيبى فى بيان معناه :

يحتمل أن يراد بالقوم الذين يساعدونه على قطيعة الرحم ، ولا ينكرون عليه ، ويحتمل أن يراد بالرحمة المطر ، وأنه يحبس عن الناس بشؤم التقاطع[1] .

وإذا كان الإسلام قد أمر بالتعاطف والتواد والتراحم بين المسلمين ، فأحرى به أن يؤكد ذلك بين الأقارب وذوى الأرحام ، وإلا تقطعت وشائج المحبة والقرابة بين الناس ، وساد المجتمع البغضُ والكُرْهُ والتدابر والتقاطع ، وإن المجتمع الذى يكون على هذا الحال لا يرجى منه خير ، وسرعان ما يتلاشى ويضمحل .

ولهذا عنى الإسلام عناية فائقة بصلة الرحم العامة والخاصة ، ودعا إلى هذا فى غير آيةمن الكتاب الكريم :

قال تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم** ﴾ [سورة النساء الآية : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسناً** ﴾ .
[سورة البقرة الآية : ٨٣]

وقال تعالى : ﴿ **ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامىَ والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين** ﴾ الآية [سورة البقرة الآية : ١٧٧] .

* * *

---

(١) بنط الحديث وشرحه الجيد فى الأدب المفرد للبخارى ج١ صـ١٤٥ والمقصود بالناس هنا عمومهم .

ما ورد فى صلة الرحم

عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **من سره أن يبسط عليه رزقه أو يُنسأ فى أثره فليصل رحمه** » .

[رواه مسلم للنووى جـ١٦ صـ٢١٤]

وفى رواية أخرى عن أنس أيضاً : « **من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ فى أثره فليصل رحمه** » .

[رواه البخارى الفتح جـ١٠ صـ٤١٣]

وروى الترمذى عن أبى هريرة مرفوعاً : « **أن صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراة فى المال ، منسأة فى الأثر** » .

وروى الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعاً : « **صلة الرحم وحُسن الخُلق يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار** » .

وروى الحاكم فى المستدرك عن على ـ رضى الله عنه ـ عنه مرفوعاً : « **من سره أن يُمد له فى عمره ، ويوسع عليه رزقه ، ويدفع عنه ميتة السوء ، فليصل رحمه** » .

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد [جـ١ صـ١٤٠ ط السلفية] من حديث ابن عمر ولقطه : « **من اتقى ربه ، ووصل رحمه ، أنسىء له فى عمره ، وثَرى ماله ، وأحبَّه أهله** » .

وخطب رسول الله ـ ﷺ ـ فكان مما قاله : « **يأَيُّها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام** » .

[رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح وابن ماجة والحاكم : صحيح على شرط الشيخين]

وعن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً قال : يارسول الله : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار .

فقال النبى – ﷺ – : « **تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم** »[1] .

[رواه البخارى فى الأدب ومسلم فى الإيمان]

وقال النبى – ﷺ – : « **الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة** » [رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح] .

ولما سألت السيدة زينب امرأة عبد الله بن مسعود رسول الله أتجزى الصدقة عنها على زوجها قال :

« لك أجران أجر القرابة ، وأجر الصلة » .

[رواه البخارى ومسلم]

وهكذا نجد أن صلة الأرحام أساسى لكثير من الخير الدنيوى والأخروى .

فماذا لو وصلنا الرحم وقاطعتنا ؟

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رجلاً قال : يارسول الله : إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىَّ . فقال : « **لئن كنت كأنما قلت فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك** » [رواه مسلم] .

ما يؤخذ من الأحاديث

١ – وجوب صلة الأرحام وتحريم قطعها وأنه كبيرة من الكبائر بدليل قوله – ﷺ – : « **لا يدخل الجنة قاطع** » .

٢ – عظم حق الرحم عند الله وإثابة من وصلها ، وإدامة الإحسان إليه ، وعقاب من قطعها بقطع الإحسان والتعطف عليه .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ١ جـ٣ ط الحلبى ، ومنتقى الترغيب والترهيب ط دار الوفاء جـ٢ صـ٦٨٣ (١٤٩٩) .

٣ ـ صلة الأرحام من أسباب السعادتين الدنيوية والأخروية ، واستنزال رحمة الله على العبد الواصل ، هذا إلى ما فيها من تأليف القلوب وجمع الكلمة وإزالة الأحقاد والأضغان والحزازات من النفوس .

٤ ـ إن مكارم الأخلاق مقابلة القطيعة من ذوى الأرحام بالوصل ، والإساءة بالإحسان ، والسفه والجهل بالحلم والعفو .

كلمة فى الحب فى الله

من محاسن الإسلام أنه يحرص على أن يقيم المجتمع الإنسانى على أساس من التحاب فى الله والتراحم ، والتواد ، إذ التحاب فى الله هو أساس كل خير وعطف .

فمتى تحاب الناس وتعاطفوا وتعاونوا على البر والتقوى ، قام مجتمعهم المنشود ويحدث العكس .. بداهة إذا تباغضوا تقاطعوا وتدابروا وانعدم بينهم التعاون .

والحب فى الله أن يحب المرء أخاه لا لدنيا يصيبها ، ولكن يحبه لأنه رجل مؤمن تقىء يراعى حق الله وحق الناس ، وسواء أعطاه من خيره أم منعه .

قال يحيى بن معاذ : « حقيقة الحب فى الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء »[١] .

أما هؤلاء الذين يرضون إذا أعطوا ويسخطون إذا منعوا ولو بحق فهم بمعزل عن هذه المحبة فى الله وهم قوم نفعيون ، وقد سما الإسلام فى باب المحبة فجعلها من كمال الإيمان ، ففى الحديث الذى رواه أبو داود عن ابن ماجة مرفوعاً :

« من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله فقد استكمال الإيمان » .

[رواه الحاكم أيضا وصححه على شرط الشيخين ووافقه الإمام الذهبى]

وجعلها السبيل إلى تذوق حلاوة الإيمان ولذته .

(١) بمعنى الموضوعية والعقلانية ووضع العواطف فى مكانها الصحيح وتحقيق العدل فى العناد والغضب مع الميل إلى الفضل .

ففى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم : « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وَطَعْمَه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهى ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار** » [متفق عليه] .

ومن ثمرات المحبة فى الله أنها تنزل صاحبها منزلة الكرامة والرضوان عند الله ، ففى الحديث الذى رواه الإمامان البخارى ومسلم مرفوعاً : « **سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قبله معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليها** .... » الحديث .

وفى حديث أبى هريرة الذى رواه الإمام مسلم :

« **أن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلّ يوم لا ظلّ إلا ظلّى ؟** .... » الحديث ..

وأحرى بها من منزلة تتشوق إليها نفوس المتحابين فى الله .

من حق المحبة فى الله أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وأن تواسيه إذا نزل به ضر ، أو أدركته فاقة ، وأن تعوده إذا مرض ، وتسأل عنه إذا غاب ، وتزوره بين الحين والحين .

وقد ضرب المسلمون الأولون ولا سيما صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ فى باب المحبة فى الله مثلاً عُلْيَا ، فقد أحب الأنصار إخوانهم المهاجرين فى الله حباً جماً حتى آثروهم بالمال والأهل ، وقد أنزل الله فيهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [سورة الحشر الآية : ٩] .

وقد زرعت المحبة فى الله فى القلوبِ الإيثارَ حتى كأن الواحد منهم تأتيه العطية فيقول : أخى فلان أحق بها ، بل كان الواحد منهم تأتيه الشربة من الماء وهو فى آخر رمق من الحياة وقد تكون فيها حياته ، فيؤثر بها أخاه فى الله ، وأعلى أنواع

المحبة هى التى كانت بين الرسول صلوات الله وسلامه عليه وصحابته الأكرمين ، وحدِّث عن هذه المحبة ولا حرج[1] ، فما عرف تاريخ الدنيا محبة كهذه المحبة .

وقد ورد عن حب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ الكثير والكثير مما لا يتسع المجال لذكره .

وبهذا الحديث السامى كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس ، وكوَّنوا أفضل مدنية عرفتها الدنيا واستحقوا الثناء من الله حيث قال تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشدَّاءُ على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ...** ﴾ الآية [سورة الفتح الآية : ٢٩] .

وسادوا الدنيا حقباً من الزمان ، فهل لنا أن نضرب فى باب الحب لله مُثلاً عُليا كما صنع آباؤنا ، وهل آن لنا أن نصل أرحامنا ابتغاء مرضاة الله ، ذلك ما نرجو .

والله الموفق إلى سواء السبيل .

صاحب الفضيلة
الشيخ/عبد الحميد كشك

---

(١) ولعل التُّراث الثابت الموثق في مصادرة اليقينية الصحيحة يكفى للتحدث به ما شاء الله ، فلا مجال للتخيل والتصوّر لانه تراث ثبتت وقائعه ووثقت توثيقا صادقًا متواترًا فلا مجال للاختلاق مطلقًا وهذا يدلل على أن الإسلام دين الفطرة التى صدقها الواقع .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

70